الينابيع

محمد فتحي صبري

القائد و الأسيرة

وقصص أخرى



الشركة المصرية العالمية للنشر

لونجمان

القائد و الأسيرة

وقصص أخرى

إشراف : وجدي رزق غالي

١٠ أ، شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

يطلب من : شركة أبو الهول للنشر

٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٣٥٦٠٨ ، ٢٩٢٠٦١٦ ٣٩٢٠(٠٢)

١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت: ٤٨٠٣٥٦ ، ٣٩٣٠ ٣٩٠٥٣٩ ، ٠٤٩٤(٠٣)

الطبعة الأولى ٢٠١٠

رقم الايداع ٨٦٠٢ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ١٢٢١ - ٢

رسوم : محمد نبيل عبد العزيز

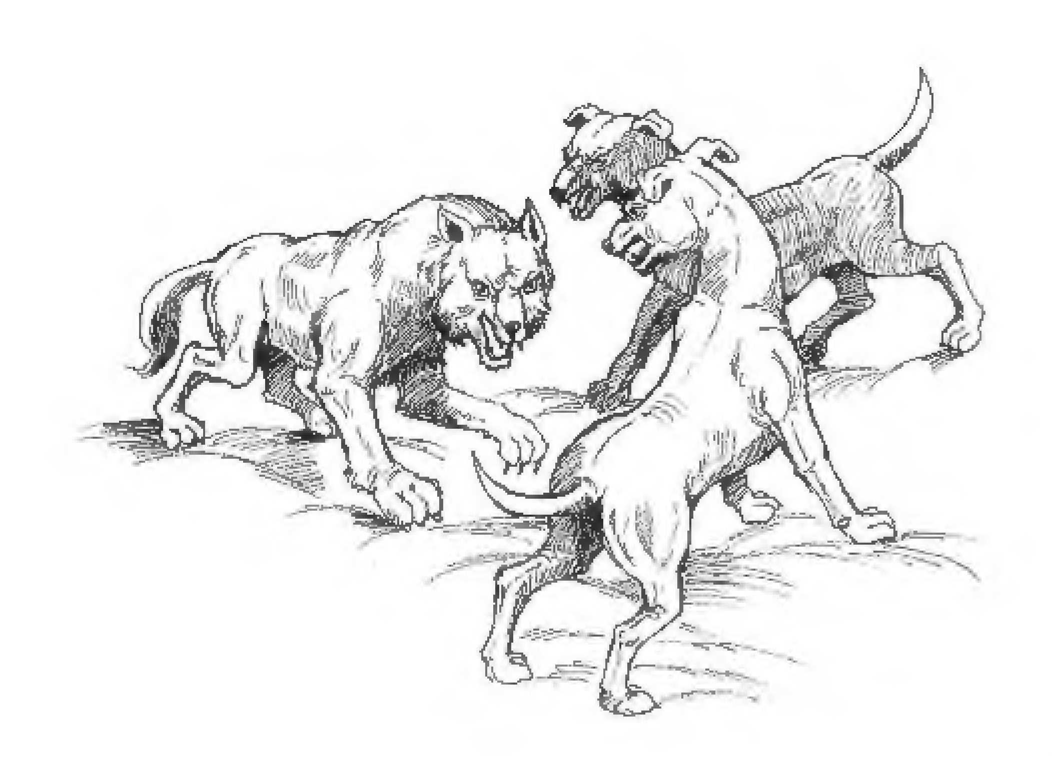
طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة



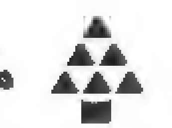
القائد و الأسيرة

وقصص أخرى

محمد فتحي صبري







مكتبة لبنان ناشرون

عُروَةُ وعَفْراء

تُوُفِّي حِزامُ بنُ مالكٍ، وتَرَكَ ابْنَهُ عُرْوَةَ صَغيرًا في حِجْرِ عَمِّهِ عِقالٍ، فَتَربّى عُرْوَةُ مَعَ ابْنَةِ عَمِّهِ عَفْراءَ، الَّتي كانَتْ في مِثْلِ عُمْرِهِ، فكانا يَلْعَبانِ ويَتَلازَمانِ في كُلِّ مَكانٍ، حتَّى أَلِفَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما صاحِبَهُ إلْفًا شَديدًا.

وكانَ عِقالٌ كُلَّما رَأى ارْتِباطَهُما وأُلْفَتَهُما، قالَ لِعُرْوَةَ: «أَبْشِرْ، فإنَّ عَفْراءَ زَوْجَتُكَ إنْ شاءَ اللهُ!»

وظَلّا مُتَلازِمَيْنِ، حَتّى شَبّا مَعًا، فأَحَبَّ كُلٌّ مِنْهُما الآخَرَ حُبًّا مَلَكَ عَلَيْه نَفْسَهُ. ولَحِقَتْ عَفْراءُ بِالنِّساءِ، ولَحِقَ عُرْوَةُ بِالرِّجالِ، فَلَمْ يُطِقْ عُرْوَةُ فِراقَها، وَلَمْ يَصْبِرْ على بُعْدِها، فَأَتى عَمَّةً لَهُ يُقالُ لَها هِنْد، وقالَ لَها في بَعْضِ ما يَقُولُ: «يا عَمَّةُ، إنِّي لَمُكَلِّمُكِ، وإنِّي مِنْكِ لمُسْتَحٍ، ولَكِنْ لَمْ أَفْعَلْ هَذا إلّا وقَدْ ضِقْتُ ذَرْعًا بِما أنا فيهِ.»

فَذَهَبَتْ عَمَّتُهُ إلى أَخيها، وَقالَتْ لَهُ: «يا أَخي، قَدْ أَتَيْتُكَ في حاجَةٍ،

أُحِبُّ أَنْ تُحْسِنَ بِها إِلَيَّ فَإِنَّ اللهَ يَأْجُرُكَ ويُجازِيكَ لِصِلَةِ رَحِمِكَ بِي.»

قالَ لَها: «قُولي، فَلَنْ تَسْأَلي حاجَةً إِلّا قَضَيْتُها لَكِ.»

قالَتْ: «تُزَوِّجُ عُرْوَةَ ابْنَ أَخيكَ بِابْنَتِكَ عَفْراءَ.»

قالَ لَها: «ما لي عَنْهُ مَذْهَبٌ، ولا هُوَ دُونَ رَجُلٍ يُرْغَبُ فِيهِ، ولا بِنا عَنْهُ رَغْبَةٌ، ولَكِنَّهُ لَيْسَ بِذي مالٍ، ولَيْسَتْ عَلَيْهِ عَجَلَةٌ.»

فَلَمّا عادَتِ العَمَّةُ، وأَخْبَرَتْ عُرْوَةَ بِما دارَ مَعَ أَخيها، طابَتْ نَفْسُهُ، وسَكَنَ فُؤادُهُ بَعْضَ السُّكُونِ.

بَيْدَ أَنَّ أُمَّ عَفْراءَ، كانَتْ سَيِّئَةَ الرَّأْيِ فِيهِ، فَقَدْ كانَتْ تُريدُ لابْنَتِها زَوْجًا ذا مالٍ ووَفْرٍ، وَكانَتْ عَفْراءُ أَهْلًا لِذَلِكَ كَمالًا وجَمالًا وحَسَبًا وَنَسَبًا.

ولَمّا بَلَغَ عُرْوَةُ أَشُدَّهُ، أَنْهَى إِلَيْهِ النّاسُ خَبَرًا أَنَّ رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ ذا يَسارٍ ومالٍ كَثيرٍ جاءَ يَخْطُبُ عَفْراءَ، فَهَلِعَ عُرْوَةُ، وأَسْرَعَ إِلَى عَمِّهِ في جَزَعٍ قائِلًا: «يا عَمُّ، قَدْ عَرَفْتُ حَقّي وقَرابَتي، وإِنّي وَلَدُكَ ورُبِّيتُ في حِجْرِكَ، وَبَلَغَني أَنَّ رَجُلًا خَطَبَ عَفْراءَ، فإِنْ أَسْعَفْتَهُ بِطَلَبِهِ قَتَلْتَني!»

فَرَقَّ لَهُ العَمُّ، وقالَ: «يا بُنَيَّ، أَنْتَ مُعْدِمٌ، وحالُنا قَريبَةٌ مِنْ حالِكَ، ولَسْتُ مُخْرِجَها إِلى سِواكَ، وأُمُّها أَبَتْ أَنْ تُزَوِّجَها إِلّا بِمَهْرٍ غالٍ.»

فَانْصَرَفَ عُرْوَةُ مِنْ دارِ عَمِّهِ، يَسْتَبِدُّ بِهِ القَلَقُ، ويَسْتَوْلي عَلَيْهِ الهَمُّ؛

فَهُوَ لا يَمْلِكُ شَيْئًا، وعَفْراءُ رَغْمَ حُبِّها لَهُ - الَّذي يَشْعُرُ بِهِ - لا تَمْلِكُ مِنْ أَمْرِها شَيْئًا، وَقَدْ كَثُرَ الخاطِبونَ لَها لِكَمالِها وجَمالِها، وأُمُّها طامِعَةٌ فيمَنْ يَمْهُرُ ابْنَتَها بِمَهْرٍ غالٍ. وذَلِكَ يَفْرِضُ عَلَيْهِ المُسارَعَةَ في تَجْهيزِ المالِ، كَيْ لا يَفْلِتَ الزِّمامُ، وتَصيرَ عَفْراءُ إلى غَيْرِهِ.

وجاءَ إِلَى أُمِّها فَلاطَفَها وبَرَّها وداراها، فَأَبَتْ أَنْ تُجيبَهُ إلّا إذا وَعَدَ بما تَرْتَضيهِ مِنَ المَهْرِ، وبَعْدَ أَنْ يَسوقَ شَطْرَهُ إِلَيْها، فَوَعَدَها بِذَلِكَ. وخَرَجَ مِنْ عِنْدِها وقَدْ أَيْقَنَ أَنَّهُ لا تَنْفَعُهُ مَعَها قَرابَةٌ ولا غَيْرُها، إلّا المالُ الَّذي تَطْلُبُهُ؛ فَأَدْرَكَهُ الهَمُّ، وطارَ عَنْهُ النَّوْمُ، وراحَ يُمْعِنُ في التَّفْكيرِ، كَيْفَ يَحْصُلُ على ما تُريدُهُ زَوْجَةُ عَمِّهِ، حَتّى هَداهُ تَفْكيرُهُ إلى ابْنِ عَمٍّ لَهُ مُوسِرٍ، يَعيشُ في مَدينَةِ الرَّيِّ، التي تَقَعُ في أَرْضِ العِراقِ، فَجاءَ إِلَى عَمِّهِ وامْرَأَتِهِ، فَأَخْبَرَهُما بِعَزْمِهِ، فَصَوَّباهُ وَوَعَداهُ أَنْ يَنْتَظِرا حَتّى يَعودَ.

ثُمَّ عَرَجَ عَلى خِيامِ عَفْراءَ، فَجَلَسَ عِنْدَها هُوَ وجَواري الحَيِّ يَتَحَدَّثونَ. وكانَتْ عَفْراءُ في هَذا اليَوْمِ قَدْ تَزَيَّنَتْ فَازْدادَتْ جَمالًا وبَهاءً، وأَخَذَتْ كُلَّما نَظَرَ إِلَيْها وعَبَّرَ لَها بِكَلِماتٍ عَنْ حُبِّهِ وهُيامِهِ، تُبادِلُهُ النَّظَرَ والكَلامَ، وعاهَدَتْهُ أَمامَ جَواري الحَيِّ أَنْ تَكونَ لَهُ ولَوْ عارَضَ أَبَواها. وكادَ أَنْ يَطيرَ مِنْ فَرْطِ سَعادَتِهِ، وقالَ لِنَفْسِهِ بَعْدَما وَدَّعَها وَوَدَّعَ الحَيَّ: «إِمّا عَفْراءُ أَوِ المَوْتُ.»

ومَعَ بُزوغِ فَجْرِ اليَوْمِ التّالي، أَسْرَعَ وشَدَّ راحِلَتَهُ، وصَحِبَهُ في طَريقِهِ فتيانِ كانا يَأْلفانِه. وكانَ طَوالَ سَفَرِهِ ساهِمًا يُكَلِّمُهُ الفَتيانِ فَلا يَعي حَتّى يُرَدَّ عَلَيْهِ القَوْلُ مِرارًا؛ فَقَدْ كانَ مَهْمومًا بِعَفْراءَ، ويَخْشَى أَنْ يَخْذُلَهُ ابْنُ عَمِّهِ. واسْتَمَرَّ على هَذِهِ الحالِ أَيّامًا طَويلَةً، إلى أَنْ أَقْدَمَ عَلى ابْنِ عَمِّهِ، فَلَقِيَهُ، وعَرَّفَهُ حالَهُ وما قَدِمَ لَهُ فيهِ، فَوَجَدَ مِنِ ابْنِ عَمِّهِ كَرَمًا وشَهامَةً، حَيْثُ وَصَلَهُ وكَساهُ وأَعْطاهُ مائَةً مِنَ الإِبِلِ، فانْصَرَفَ بِها إلى أَهْلِهِ راضِيًا مَسْرُورًا.

وجَعَلَ عُرْوَةُ أَثْناءَ عَوْدَتِهِ يَجِدُّ في سَيْرِهِ، ويَقْسو عَلى راحِلَتِهِ، ويَدْفَعُ الإِبِلَ طَوالَ الطَّريقِ الطَّويلِ. وكانَ كُلَّما أَدْرَكَهُ التَّعَبُ والحَرُّ الشَّديدُ، تَوَقَّفَ في أَرْضٍ لِيَرْتاحَ، ويَحْتَمِيَ مِنْ لَفْحِ الحَرِّ تَتَمَثَّلُ أَمامَهُ صورَةُ عَفْراءَ، فَتَرْتَدُّ إِلَيْهِ قُواهُ ويُعاوِدُهُ نَشاطُهُ. حَتّى وَصَلَ أَخيرًا إلى دارِ عَمِّهِ، وهُوَ يَلْهَثُ مِنْ فَرْطِ الجُهْدِ والفَرْحَةِ لِإِنْجازِ مُهِمَّتِهِ. وها هُوَ ذا يَسوقُ إلى عَمِّهِ وزَوْجَتِهِ مَهْرَ عَفْراءَ، لِيَقْتَرِنَ بِها أَخيرًا بَعْدَ هُيامٍ دامَ سَنَواتٍ طِوالًا.

لَكِنَّهُ ما إِنْ قَدِمَ عَلى أَبيها، حَتّى فوجِئَ بِهِ يُلاقيهِ وقَدِ اكْتَسَى وَجْهُهُ بِالحُزْنِ.

سَأَلَهُ عُرْوَةُ في لَهْفَةٍ: «ماذا يَحْزُنُكَ، يا عَمُّ؟»

أَطْرَقَ العَمُّ قَليلًا، ثُمَّ قالَ: «أَلَمْ يَصِلْكَ الخَبَرُ، يا بُنَيَّ؟»

تَساءَلَ عُرْوَةُ في ذُهولٍ: «أيُّ خَبَرٍ؟»

أَجابَ العَمُّ: «لَقَدْ تُوُفِّيَتْ عَفْراءُ، يا وَلَدي!»

***

صَدَرَتْ عَنْ عُرْوَةَ صَرْخَةٌ هائِلَةٌ، وقالَ وهُوَ لا يُصدِّقُ ما حَدَثَ: «عَفْراءُ!»

وشَعَرَ أَنَّ الأَرْضَ تَميدُ (تدورُ) تَحْتَ قَدَمَيْهِ، وسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ.

وما إِنْ أَفاقَ عُرْوَةُ مِنْ غَشْيَتِهِ، حَتّى قالَ لَهُ عَمُّهُ: «هَلّا صَحِبْتَني إِلَى قَبْرِها، يا بُنَيَّ؟ فَإِنّي قَدْ عَزَمْتُ زِيارَتَها لِتَوِّي.»

فَصَحِبَ عُرْوَةُ عَمَّهُ وهُوَ لا يُصَدِّقُ وكانَ يَشْعُرُ وكَأَنَّهُ في حُلْمٍ مُزْعِجٍ مُخيفٍ، وأَخَذَ يُرَدِّدُ طَوالَ الطَّريقِ: «عَفْراءُ! عَفْراءُ! مَنْ أَحْبَبْتُها مُنْذُ صِبايَ لَيْسَتْ في عالَمِنا الآنَ؟»، ولَكِنَّهُ أفاقَ عَلى الحَقيقَةِ المُرَّة عِنْدَما وَجَدَ نَفْسَهُ أمامَ قَبْرِ عَفْراءَ، فانْفَجَرَ في البُكاءِ.

ولَبِثَ عُرْوَةُ يَخْتَلِفُ إلى (يَتَرَدَّدُ عَلَى) قَبْرِ عَفْراءَ أَيّامًا وهُوَ مُضْنًى حَزينٌ.

لَكِنَّهُ عادَ يَوْمًا مِنْ زِيارَةِ قَبْرِ عَفْراءَ، فَإِذا بِصَوْتٍ مِنْ بَعيدٍ يَتَناهى إِلى أُذُنَيْهِ. كانَ صَوْتَ امْرَأَةٍ، فَالْتَفَتَ عُروةُ تُجاهَ الصَّوْتِ، فَأَبْصَرَ امْرَأَةً كانَتْ تُسرِعُ نَحْوَهُ، فَلَمّا اقْتَرَبَتْ مِنْهُ وهِيَ تَلْهَثُ، عَرَفَ فيها جارِيَةً مِنْ جَوارِي عَفْراءَ.

وبادَرَتْهُ الجارِيَةُ بِصَوْتٍ مُتَلاحِقِ الأَنْفاسِ: «سَيِّدي عُرْوَةُ، هَلْ كُنْتَ عائِدًا مِنْ زِيارَةِ قَبْرِ سَيِّدَتي عَفْراءَ؟»

أَوْمَأَ عُرْوةُ، وقالَ بِصَوْتٍ مُخْتَلِجٍ مُتَهَدِّجٍ: «وهَلْ هُناكَ قَبْرٌ آخَرُ يَعْنيني سِواهُ؟»

وإِذا بِالجارِيَةِ تَقولُ وهِيَ تَلْهَثُ: «لا يوجَدُ، يا سَيِّدي، قَبْر لعَفْراءَ!»

فَأَلْقى عُرْوَةُ عَلى الجارِيَةِ نَظْرَةَ دَهْشَةٍ، وسَأَلَها مُسْتَنْكِرًا: «ماذا تَقولينَ يا جارِيَةُ؟ أَلَيْسَ هَذا قَبْرَها؟»

فَاقْتَرَبَتْ مِنْهُ الجارِيَةُ، وَتَوَقَّفَتْ، وأَجالَتِ النَّظَرَ حَوْلَها في خَوْفٍ، ثُمَّ هَمَسَتْ قائِلَةً: «إِنَّهُمْ خَدَعوكَ، يا سَيِّدي، وقالوا إِنَّ عَفْراءَ ماتت.»

فَكادَتِ الأَرْضُ تَميدُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، ونَظَرَ إِلى الجارِيَةِ وهُوَ في ذُهولٍ وحَيْرَةٍ بَيْنَ التَّصْديقِ والتَّكْذيبِ.

وأَرْدَفَتِ الجارِيَةُ بِصَوْتِها الهامِسِ: «نَعَم، يا سَيِّدي، عُرْوَةُ.. إِنّ سَيِّدتي عَفْراءَ حَيَّةٌ تُرْزَقُ.»

وشَعَرَ عُرْوَةُ بِالمَرارَةِ تَمْلأُ حَلْقَهُ، وتَحْرِقُ جَوْفَهُ. وتَلاحَقَتْ أَنْفاسُهُ، حَتّى خَشِيَتِ الجارِيَةُ عَلَيْه. ولَوْلا أَنَّهُ يَعْرِفُ الجارِيَةَ لَشَكَّ في أَنَّها إِحْدى بَناتِ الجانِّ، وحاوَلَ أَنْ يَتَفَوَّهَ ولَوْ بِكَلِمَةٍ، ولَكِنْ لَمْ يُسْعِفْهُ

لِسانُهُ بِشَيْءٍ، فَقَدْ كانَ يَخْتَلِجُ مَعَ بَقِيَّةِ جِسْمِهِ.

وفَجْأَةً أَجْهَشَتِ الجارِيَةُ بالبُكاءِ، ثُمَّ قالَتْ وهِيَ تُغالِبُ بُكاءَها: «ولَكِنْ لا تفْرَحْ لِوُجودِها حَيَّةً، يا سَيِّدي.»

وازْدادَ ذُهولُ عُرْوَةَ، وشَعَرَ أَنَّهُ قَدْ أَوْشَكَ عَلى الجُنونِ، فَكادَ يَتَهاوَى عَلى الأَرْضِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ.

قالَتِ الجارِيَةُ وهِيَ تَنْتَحِبُ: «لأَنَّ سَيِّدَتي عَفْراءَ تَزَوَّجَتْ.»

وصَمَتَتْ قَليلًا، وهِيَ تُحَدِّقُ في وَجْهِ عُرْوَةَ، الَّذي رانَتْ عَلَيْهُ الحَيْرَةُ والدَّهْشَةُ، وأَصابَهُ الذُّهولُ والوُجومُ. وقالَتْ مُشْفِقَةً عَلَيْهِ: «نَعَمْ، يا سَيِّدي زَوَّجَها أَبواها مِنْ رَجُلٍ بالشَّام، وطَلَبُوا مِنَ الجَميعِ إِخْفاءَ الأَمْرِ عَنْكَ.»

ذَلِكَ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ وَدَّعَ عُرْوَةُ عَمَّهُ وَزَوْجَتَهُ لِلسَّفَرِ إِلى ابْنِ عَمِّهِ بِمَدينَةِ الرَّيّ، جاءَ رَجُلٌ ذو مالٍ مِنْ أَهْلِ الشّامِ مِنْ أَنْسابِ بَني أُمَيَّةَ. ونَزَلَ في حَيِّ عَفْراءَ، فَنَحَرَ ووَهَبَ وأَطْعَمَ. وكان مَنْزِلُهُ قَريبًا مِنْ مَنْزِلِ عَفْراءَ، فَلَمّا رَآها أَعْجَبَتْهُ وخَطَبَها إِلى أَبيها، فاعْتَذَرَ إِلَيْهِ قائلًا: «قَدْ سَمَّيْتُها إِلى ابْنِ أَخٍ لي يَعْدِلُها عِنْدي، وما إِلَيْها لِغَيْرِهِ مِنْ سَبيلٍ.»

قالَ لَهُ الرَّجُلُ: «إِنّي أُرَغِّبُكَ في المَهْرِ.»

رَدَّ العَمُّ: «لا حاجَةَ لي بِذَلِكَ.»

وعَدَلَ الرَّجُلُ إلى أُمِّها، فَوَجَدَ عِنْدَها قَبولًا لِبَذْلِهِ، ورَغِبَتْ في مالِهِ، فَأَجابَتْهُ ووَعَدَتْهُ، وجاءَتْ إلى زَوْجِها وقالَتْ: «أَيُّ خَيْرٍ في عُرْوَةَ حَتّى تَحْبِسَ ابْنَتي عَلَيْهِ وقَدْ جاءَها الغَنِيُّ يَطْرُقُ عَلَيْها بابَها؟ واللهِ ما تَدْري أَعُرْوَةُ حَيٌّ أَوْ مَيِّتٌ؟ وهَلْ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ بِخَيْرٍ أَمْ لا؟ فَتكونُ قَدْ حَرَمْتَ ابْنَتَكَ خَيْرًا حاضِرًا، ورِزْقًا سَنِيًّا.»

ولَمْ تَزَلْ بِهِ حَتّى قالَ لَها مُحَذِّرًا: «إِنْ عادَ لي خاطِبًا أَجَبْتُهُ.»

أَجابَتْهُ: «أَنْ عُدْ إِلَيْهِ خاطِبًا.»

ولَمّا كانَ مِنْ غَدٍ نَحَرَ خِرافًا عِدَّةً، وأَطْعَمَ ووَهَبَ، وجَمَعَ الحَيَّ مَعَهُ عَلى طَعامِهِ، وفيهِمْ أبو عَفْراءَ، فَلَمّا طَعِموا أَعادَ القَوْلَ في الخِطْبَةِ، فَأَجابَهُ وَزَوَّجَهُ، وساقَ إِلَيْهِ المَهْرَ، وحُوِّلَتْ إِلَيْهِ عَفْراءُ، فَأَخَذَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَها قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِها: «يا عُرْوَةُ، إِنَّ الحَيَّ قَدْ نَقَضوا عَهْدَ الإِلَهِ وحاوَلوا الغَدْرَ.»

وفي المساءِ زُفَّتْ إلى زَوْجِها، وبَعْدَ ثَلاثَةِ أيامٍ ارْتَحَلَ بِها إلى الشّامِ، وعَمَدَ أَبوها إلى قَبْرٍ عَتيقٍ فَجَدَّدَهُ وسَوّاهُ، وسَأَلَ الحَيَّ كِتْمانَ أَمْرِها.

ولَمّا أَخْبَرَتِ الجارِيَةُ عُرْوةَ بما حَدَثَ، تَرَكَ قَوْمَهُ ورَكِبَ ناقَتَهُ،

وأَخَذَ مَعَهُ زادًا ونَفَقَةً، وَرحَلَ إلى الشّامِ فَقَدِمَها، وسَأَلَ عَنْ زَوْجِ عَفْراءَ، فَأُخْبِرَ بِهِ ودُلَّ عَلَيْهِ، فَقَصَدَهُ. وقالَ لَهُ إِنَّهُ مِنْ بَني عَدْنانَ، فَفَرِحَ بِهِ الرَّجُلُ، فَهُوَ بِذَلِكَ قَدِ انْتَسَبَ إِلَيْهِ، فَأَكْرَمَهُ وأَحْسَنَ ضِيافَتَهُ، فَمَكَثَ أَيّامًا حَتّى أَنِسوا بِهِ.

وسَأَلَ عُرْوَةُ جارِيَةً مِنْ جَواري عَفْراءَ: «هَلْ لَكِ في يَدٍ (نِعْمَةٍ وَإِحْسانٍ) تُولينيها؟»

أَجابَتْهُ: «نَعَمْ.»

قالَ: «تَدْفَعينَ خاتَمي هَذا إلى مَوْلاتِكِ.»

واسْتَنْكَرَتِ الجارِيَةُ الأَمْرَ، وقالَتْ في غَضَبٍ: «تَبًّا لَكَ! أما تَسْتَحي مِنْ هَذا القَوْلِ؟»

وأَمْسَكَ عَنْها، ثُمَّ قالَ لَها: «وَيْحَكِ! هِيَ واللهِ بِنْتُ عَمّي، وما أَحَدٌ مِنّا إِلّا وهُوَ أَعَزُّ على صاحِبِهِ مِنَ النّاسِ، فاطْرَحي هَذا الخاتَمَ في صَحْنِها، فإِنْ أَنْكَرَتْ عَلَيْكِ فَقولي لَها: «تَناوَلَ ضَيْفُكِ إفطارَهُ قَبْلَكِ، ولَعَلَّهُ سَقَطَ مِنْهُ.»»

فَرَقَّتْ لَهُ الجارِيَةُ، وفَعَلَتْ ما أَمَرَها بِهِ.

ولَمّا وقَعَتْ عَيْنا عَفْراءَ عَلى الخاتَمِ عَرَفَتْهُ، فَشَهَقَتْ، ونادَتْ في لَهْفَةٍ عَلى جارِيَتِها، وقالَتْ لَها: «اصْدُقيني الخَبَرَ.»



ورَوَتْ لَها الجارِيَةُ ما حَدَثَ.

وعِنْدَما جاءَ زَوْجُها قالَتْ لَهُ: «أَتَدْرِي مَنْ ضَيْفُكَ هَذا؟»

قالَ: «نَعَمْ!» وذَكَرَ لَها النَّسَبَ الَّذي انْتَسَبَهُ عُرْوَةُ.

قالَتْ: «كَلّا واللهِ، بَلْ هُوَ عُرْوَةُ بْنُ حِزامٍ ابنُ عَمّي، وقَدْ كَتَمَكَ نَفْسَهُ حَياءً مِنْكَ.»

وبَعَثَ زَوْجُها إلى عُرْوَةَ، وعاتَبَهُ عَلى كِتْمانِهِ نَفْسَهُ، وقالَ لَهُ: «بالرُّحْبِ والسَّعَةِ، نَشَدْتُكَ اللهَ إنْ بَرِحْتَ هَذا المكانَ أَبَدًا.»

وخَرَجَ وتَرَكَهُ مَعَ عَفْراءَ يَتَحَدَّثانِ، وأَوْصَى خادِمًا لَهُ بالاسْتِماعِ إلَيْهِما وإِعادَةِ ما يسْمَعُهُ مِنْهُما عَلَيْهِ.

فَلَمّا خلَوَا تَشاكَيا ما وَجَدا بَعْدَ الفِراقِ، فَطالَتِ الشَّكْوى وهُوَ يَبْكي أَحَرَّ بُكاءٍ، ثُمَّ أَتَتْهُ بِشَرابٍ، وسَأَلَتْهُ أَنْ يَشْرَبَهُ، فَقالَ: «واللهِ ما دَخَلَ في جَوْفي حَرامٌ قَطُّ، ولا ارْتَكَبْتُهُ مُنْذُ كُنْتُ، ولَوِ اسْتَحْلَلْتُ حَرامًا لَكُنْتُ قَدِ اسْتَحْلَلْتُهُ مِنْكِ، فَأَنْتِ حَظّي مِنَ الدُّنْيا، وقَدْ ذَهَبْتِ مِنّي وذَهَبْتُ بَعْدَكِ فَما أعيشُ. وقَدْ أَجْمَلَ هَذا الرَّجُلُ الكَريمُ وأَحْسَنَ، وأنا أَسْتَحْيِي مِنْهُ، واللهِ لا أُقيمُ بَعْدَ عِلْمِهِ مَكاني، وإني عالِمٌ أنّي راحِلٌ إلى مَنِيَّتي.»

فَبَكَتْ وبَكَى وانْصَرَفَ.

ولَمّا جاءَ زَوْجُها، أَخْبَرَتْهُ الجارِيَةُ بِما دارَ بَيْنَهُما، فَقالَ: «يا عَفْراءُ، امْنَعي ابْنَ عَمِّك مِنَ الخُروجِ.»

وقالَتْ: «لا يَمْتَنِعُ. هُوَ واللهِ أَكْرَمُ وأَشَدُّ حَياءً مِنْ أَنْ يُقيمَ بَعْدَما جَرى بَيْنَكُما.»

ودَعاهُ وقالَ لَهُ: «يا أخي، اتَّقِ اللهَ في نَفْسِكَ، فَقَدْ عَرَفْتُ خَبَرَكَ، وإنَّكَ إنْ رَحَلْتَ هَلَكْتَ. واللهِ لا أَمْنَعُكَ مِنَ الاجْتِماعِ مَعَها أَبَدًا، وَلَئِنْ شِئْتَ لأُفارِقَنَّها، ولأَنْزِلَنَّ عَنْها لَكَ.»

وقالَ عُرْوَةُ: «جَزاكَ اللهُ خَيْرًا.»

وأَثْنى عَلَيْهِ، وقالَ: «إنَّما كانَ الطَّمَعُ إِلَيْها آفَتي، والآنَ قَدْ يَئِسْتُ، وحَمَلْتُ نَفْسي عَلى الصَّبْرِ، فإنَّ اليَأْسَ يَسْلي، وَلي أُمورٌ لا بُدَّ مِنْ رُجوعي إلَيْها، فإنْ وَجَدْتُ بي قُوَّةً على ذَلِكَ، وإلّا عُدْتُ إلَيْكُم وزُرْتُكُمْ، حَتّى يَقْضِيَ اللهُ مِنْ أَمْري ما يَشاءُ.»

وزَوَّدوهُ وأَكْرَموهُ ووَدَّعوهُ، فانْصَرَفَ.

ولَمّا رَحَلَ عَنْهُمْ نَكَسَ بَعْدَ صَلاحِهِ وتَماسُكِهِ، وأَصابَهُ غَشْيٌ وخَفَقانٌ، فَكانَ كُلَّما أُغْمِيَ عَلَيْهِ أَلْقَوا عَلى وَجْهِهِ خِمارًا لِعَفْراءَ زَوَّدَتْهُ بِهِ فَيُفيقُ.

ولَقِيَهُ في الطَّريقِ ابْنُ مَكْحولٍ عَرّافُ اليمامَةِ، فَرآهُ وَجلَسَ عِنْدَهُ وسَأَلَهُ عمّا بِهِ، وهَلْ هُوَ خَبَلٌ أم جُنونٌ.

وَسَأَلَهُ عُرْوَةُ: «أَلَكَ عِلْمٌ بالأوْجاعِ؟»

أَجابَ العَرّافُ: «نَعَمْ.»

وأَنْشَدَ عُرْوَةُ شِعْرًا يَقولُ فيهِ إنَّ ما بِهِ لَيْسَ خَبَلًا ولا جُنونًا، ولَكِنَّ عَمَّهُ كَذوبٌ حَرَمَهُ بِكَذِبِه مِمَّنْ يُحِبُّ، حَتّى أصابَهُ مَرَضٌ عُضالٌ.

وأَطْرَقَ العَرّافُ في حُزْنٍ.

وَبَيْنَما كانَ عُرْوَةُ في طَريقِ عَوْدتِهِ مِنَ الشَّامِ تُوُفِّي.

وبَلَغَ الخبَرُ عفْراءَ، فَشَعَرَتْ أَنَّ الدُّنْيا قَدْ مادَتْ (دارَتْ واضْطَرَبَتْ) تَحْتَ قَدَمَيْها، وأَنَّها بِفَقْدِها لِعُرْوَةَ، إنَّما فقَدَتِ الدُّنْيا جَميعَها، فَأَسْرَعَتْ لِزَوْجِها وقالَتْ وهِيَ تَجْهَشُ بِالبُكاءِ: «قَدْ كانَ مِنْ خَبَرِ ابْنِ عَمّي ما بَلَغَكَ، وواللهِ ما عَرَفْتُ مِنْهُ قَطُّ إلّا الحُسْنَ. وقَدْ ماتَ فِيَّ وبِسَبَبي، ولا بُدَّ لِي مِنْ أنْ أنْدُبَهُ فَأُقيمَ مَأْتَمًا عَلَيْهِ.»

قالَ زَوْجُها في حُزْنٍ: «اِفْعَلي.»

وجَعَلَتْ عفْراءُ تَنْدُبُ حَبيبَها عُرْوَةَ ثَلاثَةَ أيّام كامِلَةٍ. وما إنْ جاءَ اليَوْمُ الرّابعُ. حَتّى حَدَثَ حادِثٌ عَجيبٌ. فَقَدْ تُوُفِّيَتْ عفْراءُ!

وانْتَشَرَ خَبَرُ قِصَّتِهِما فِي عَهْدِ مُعاوِيَةَ بنِ أَبي سُفْيان، فلَمّا عَلِمَ بالقِصَّةِ، قالَ في أَسًى: «لَو عَلِمْتُ بِحالِ هَذَيْنِ الحُرَّيْنِ الكَريمَيْن لَجَمَعْتُ بَيْنَهُما.»

* * *

القَائِدُ والأَسِيرَة

كانَ يَوْمُ انْتِصارِ جُنودِ السُّلطانِ بِيبَرْسَ ودُخولِهِمْ مَدينَةَ أَنْطاكْيَةَ يَوْمًا مَشْهُودًا؛ إذْ تَمَّ النَّصْرُ بَعْدَ حِصارِهِمْ لِلْمَدينَةِ أَيَّامًا كَثيرَةً. كانَ أَبْناءُ أَنْطاكْيَةَ خِلالَها يُقاوِمونَ بِضَراوَةٍ مِنْ خَلْفِ أَسْوارِهِمُ المَنيعَةِ، ولَكِنَّ جُنودَ بِيبَرْسَ قاتَلوهُمْ بِبَسالَةٍ مُنْقَطِعَةِ النَّظيرِ.

ودَخَلوا المدينَةَ في أُبَّهَةِ النَّصْرِ واخْتِيالِ القُوَّةِ، وعَلى رَأْسِهِمْ قائِدُهُمْ سَلامِشُ الَّذي تَقَدَّمَهُمْ راكِبًا جَوادَهُ الأَصيلَ. كانَ شابًّا في مُقْتَبَلِ العُمْرِ، مُشْرِقَ الوَجْهِ مَمْشوقَ القَوامِ، رافِعَ الرَّأْسِ. وكانَ يَرْتَدي الدِّرْعَ، وفي يَدِهِ الرُّمْحُ، وفي مِنْطَقَتِهِ السَّيْفُ.

وبَلَغَ القائِدُ وجَيْشُهُ مَيْدانَ المدينَةِ الأَكْبَرَ، وقَدْ حُشِدَ فيهِ الأَسْرى والضُّعَفاءُ الَّذينَ وَقَفوا يَتَطَلَّعونَ إلى حُكْمِ الفاتِحِ فيهِمْ، في حينَ كانَ شَبابُها ورِجالُها بَيْنَ مُقَيَّدٍ في الأَصْفادِ، وجَريحٍ يُعْنَى بِهِ في خِيامِ العِلاجِ، وقَتيلٍ صَريعٍ عَلى جانِبِ الأَسْوارِ.

وهَدَأَتِ الأَصْواتُ، وأَوْمَأَ القائِدُ لِلْجَيْشِ بالوُقوفِ حَوْلَ المَيْدانِ، فَوَقَفوا يَنْظُرونَ إلى أَكْوامِ الغَنائمِ الَّتي أَمَرَ السُّلْطانُ الأَعْظَمُ أَنْ تُقَسَّمَ بَيْنَهُمْ. وكانَتِ الغَنائِمُ لا نَظيرَ لَها مِنْ كُلِّ نَفيسٍ ونادِرٍ مِنْ تُحَفِ الأُمَراءِ والأَغْنِياءِ، في حِينِ وقَفَتِ الجَماعاتُ مِنْ سَبايَا الحَرْبِ بَيْنَ صِبْيَةٍ وشُبّانٍ وكُهولٍ يَنْظُرونَ إلى قُيودِهِمْ حانِقينَ، وقَدْ أَخَذَ العَديدُ مِنْهُمْ يَبْكونَ.

وتَقَدَّمَ وَفْدٌ مِنْ كِبارِ المَدينةِ وأُمَرائها نَحْوَ سَلامِش، وما إنْ صاروا عَلى بُعْدِ خُطُواتٍ مِنْهُ، حَنَوْا رُؤوسَهُمْ أمامَهُ، ثُمَّ طَلَبوا الإِذْنَ بالكَلامِ. فَأَذِنَ لَهُمْ، ونَظْرَتُهُ الصَّارِمَةُ الَّتي في عَيْنَيْهِ والعُبوسُ الَّذي رانَ عَلى وَجْهِهِ لا يُفارِقانِهِ كَعادَتِهِ.

جَعَلوا يَتَكَلَّمونَ، في حينِ وَقَفَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُتَرْجِمُ ما يَقولون، فطَلَبوا أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمُ القائِدُ بالحُرِّيَّةِ، وأَنْ يُعيدَ إِلَيْهِمْ نِساءَهُمْ وسَراريهِمْ تَقَرُّبًا إلى اللهِ الَّذي نَصَرَهُ، بَعْدَ أَنْ وَضَعَتِ الحَرْبُ أَوْزارَها ودانَتِ المَدينَةُ لِحُكْمِهِ.

ولَمّا وَجَدوهُ مُطْرِقًا يُفَكِّرُ، اسْتَجْمَعَ المُتَرْجِمُ شَجاعَتَهُ، وقالَ لَهُ مُتَضَرِّعًا: «حَسْبُكَ مَنْ قَتَلْتَ مِنْ شَبابِنا وكُهولِنا، وما خَرَّبْتَ مِنْ دِيارِنا وأَمْلاكِنا، فَكَفاكَ مِنَ الحَرْبِ النَّصْرُ، فلا تَضُمَّ إِلَيْهِ دُموعَ المَساكينِ،

ولَهيبَ الفِراقِ بَيْنَ الأَبْناءِ والوَالِدينَ.»

بَيْدَ أَنَّ سَلامِشَ لَمْ يُجِبْهُمْ بِشَيْءٍ، واكْتَفَى بِإشارَةٍ لجُنودِهِ أَنْ يُعيدُوا الأَسْرى إلى المُعَسْكَرِ حَتّى يَرى فيهِمُ السُّلْطانُ رَأْيَهُ الأَخيرَ، فَانْصَرَفَ وَفْدُهُمْ وهُمْ في حَيْرَةٍ وحَسْرَةٍ.

وتَرَكَ القائِدُ جُنْدَهُ وسارَ نَحْوَ مُخَيَّمِهِ، إلّا أَنَّهُ ما كادَ يَخْطو عِدَّةَ خُطُواتٍ، حَتّى تَوَقَّفَ فَجْأَةً، فَقَدِ اسْتَرْعَى نَظَرَهُ جَماعَةٌ مِنَ الجُنودِ يَجُرُّونَ فَتاةً مِنَ الأَسْرَى، وهِيَ تُمانِعُ وتُجاهِدُ، فاقْتَرَبَ سَلامِشُ مِنْها، فَرَآها شابَّةً جَميلَةً مَمْشوقَةً، فارِعَةَ القَوامِ، قَدْ أُشْرِبَتْ بَشَرَتُها البَيْضاءُ حُمْرَةً جَعَلَتْها فاتِنَةً أَخّاذَةً، وفي عَيْنَيْها حَلاوَةٌ لَمْ تُخْفِها الصَّرامَةُ الَّتي غَشِيَتْها، وهِيَ تَنْظُرُ إلى الجُنْدِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ يَدْفَعانِها مَرْفوعَةَ الرَّأْسِ، كَأَنَّها تَتَحَدّاهُما، جامِدَةَ العَيْنَيْنِ، مَضْمومَةَ الشَّفَتَيْنِ، وقَدْ تَمَزَّقَ ثَوْبُها وَبَلِيَ مِنْ أَثَرِ مُقاوَمَتِها لِلْجُنودِ وما عَلِقَ بِهِ مِنْ وَسَخٍ ودِماءٍ. وكانَ شَعْرُها الفاحِمُ الغَزيرُ يُغَطّي كَتِفَيْها لامِعًا في ضَوْءِ الشَّمْسِ الغارِبَةِ، كَأَنَّهُ الحَريرُ، فَرَقَّ لَها قَلْبُ سلامِش وذَهَبَ عَنْهُ عُبوسُهُ ولانَتْ نَظْرَتُهُ، وَهَتَفَ بالجُنْدِيَّيْنِ أَنْ يَكُفّا، وأَشارَ لَهُما بِالانْصِرافِ.

وتَرَجَّلَ مِنْ فَوْقِ جَوادِهِ واقْتَرَبَ مِنَ الفَتاةِ، وأَخَذَها بِذِراعَيْها مُتَرَفِّقًا،



فَأَسْلَمَتْ لَهُ قِيادَها، وسارَتْ مَعَهُ، لِبِضعِ دَقائِقَ حَتّى مَكانِ أَحَدِ الشُّيوخِ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ الَّذي كانَ في صُحْبَةِ الجَيْشِ، فَأَمَرَهُ بِرِعايَتِها والرِّفْقِ بِها.

إلّا أَنَّهُ ما إِنْ تَرَكَها وامْتَطَى جَوادَهُ، حَتّى اسْتَعادَ نَظْرَتَهُ الصّارِمَةَ وعبوسَه. وأَمْضَى سائِرَ اليَوْمِ وهُوَ في شُغْلٍ مِنْ أَمْرِ جَيْشِهِ حَتّى انْتَصَفَ اللَّيْلُ، لَكِنَّهُ ما إن آوى إلى خَيْمَتِهِ حَتّى تَذَكَّرَ الفَتاةَ، فَهَبَّ مِنْ فِراشِهِ، ونادَى أَحَدَ الغِلْمانِ وأَمَرَهُ أَنْ يُحْضِرَها إِلَيْهِ، وجَلَسَ يَسْتَعيدُ صورَتَها، وَيَتَمَثَّلُها وهِيَ تُناضِلُ عَلى ضَعْفِها، وتُحافِظُ عَلى كِبْرِيائِها رَغْمَ ما حاقَ بِها مِنْ ذُلٍّ.

وما زالَ يُفَكِّرُ في أَمْرِها حَتّى انْقَضَتْ فَتْرَةٌ طَويلَةٌ، عادَ بَعْدَها الغُلامُ وَحيدًا، وقالَ بَعْدَ أَنْ حَيّاهُ بِاحْتِرامٍ ورَهْبَةٍ: «إِنَّها لا تَرُدُّ بِكَلِمَةٍ، ولا تَرْفَعُ بَصَرَها إلى أَحَدٍ.»

فَصَرَفَ سَلامِشُ الغُلامَ، ووَقَفَ بَعْضَ الوَقْتِ مُتَعَجِّبًا مِنْ أَمْرِها، ثُمَّ نَهَضَ مُتَثاقِلًا وسارَ إلى خَيْمَتِها، فَرَآها جالِسَةً عَلى الأَرْضِ وقَدْ وَضَعَتْ رَأْسَها بَيْنَ كَفَّيْها، فَشَعَرَ سَلامِشُ تُجاهَها بِحَنانٍ جارِفٍ، فَدَنا مِنْها ووَضَعَ يَدَهُ عَلى رَأْسِها، وابْتَسَمَ ابْتِسامَةً ضَئيلَةً وقالَ في صِدْقٍ: «لَكَمْ أَحْزَنَني ما أَصابَكِ!»

فَانْتَفَضَتِ الفَتاةُ رافِعَةً رَأْسَها، وقامَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ.. كانَ الحِقْدُ مُرْتَسِمًا عَلى مُحَيّاهَا، والغَضَبُ يَضْطَرِمُ في عَيْنَيْها، وكانَتْ قَدْ بَدَّلَتِ المَلابِسَ الرَّثَّةَ المُمَزَّقَةَ الَّتي كانَتْ تَرْتَدِيها، وأُلْبِسَتْ حُلَّةً (ثَوْبًا جَديدًا) مِنَ الحَريرِ جَعَلَتْ وَجْهَها الأَبْيَضَ المُشْرَبَ بالحُمْرَةِ وعَلَيْهِ آثارُ الدُّموعِ يَبْدو كالزَّنْبَقَةِ المُبَلَّلَةِ بالنَّدى، ودَفَعَتْ يَدَهُ عَنْها قائِلَةً بِصَوْتٍ مُمْتَلِئٍ بالحِقْدِ: «أَبْعِدْ يَدَكَ عَنّي، أَيُّها القائِدُ السَّفّاكُ.»

وَقَفَ سلامِشُ يَنْظُرُ إِلَيْها مَبْهوتًا، ولَكِنَّها اسْتَمَرَّتْ وقَدِ ازْدادَ وجْهُها مَقْتًا: «أَدِرْ وَجْهَكَ الكَريهَ عَنّي، فَكَيْفَ أُطيقُ رؤْيَتَهُ وأَنْتَ قاتِلُ أبي وأخِي، وأَنْتَ سافِكُ دِماءَ قَوْمي، والمُعْتَدي على وَطَني؟ اِبْعَدْ عَنّي وافْعَلْ بِيَ ما شِئْتَ مِنْ عَذابٍ أَوْ قَتْلٍ تُكَمِّلُ بِهِ وَحْشِيَّتَكَ وفَظاعَةَ جُنْدِكَ.»

وكانَتْ في ثَوْرَتِها المُتَأَجِّجَةِ تَقْذِفُهُ بنَظَراتٍ كالسِّهامِ، في حينَ كانَ صَدْرُها يَعْلو ويَهْبِطُ وشَعْرُها الطَّويلُ الفاحِمُ يَضْطَرِبُ فَوْقَ كَتِفَيْها وعَلى صَدْرِها. ووَقَفَ سَلامِشُ يَنْظُرُ إِلَيْها دَهِشًا مِنْ قَوْلِها لَمْ تَفُتْهُ فَصاحةُ لَفْظِها ولا رَخامَةُ صَوْتِها ولَمْ يَنْبِسْ بِبِنْتِ شَفَةٍ (لَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمةٍ واحِدةٍ)، بَلْ جَعَلَ يُعْمِلُ فِكْرَهُ بُرْهَةً، وعادَ يسير ببطءٍ وفي نَفْسِه ما يُشْبِهُ الحزنَ المُمتزِج بالحيرة.

وكانَ أَوَّلُ عَمَلٍ قامَ بِهِ بَعْدَ عَوْدَتِهِ إِلى خَيْمَتِهِ أَنْ أَرْسَلَ أحدَ رِجالِهِ،

لِيُحْضِرَ إِلَيْهِ الشَّيْخَ الفَقيهَ في بَلَدِها، والَّذي طَلَبَ مِنْهُ العِنايَةَ بِأَمْرِها، فَلمّا أَتى وَمَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ جَعَلَ يَسْأَلُهُ عَنِ المدينةِ وأَهْلِها، وعَنْ تِلْكَ الفَتاةِ وبَيْتِها، فَعَلِمَ مِنْهُ أَنَّها ابْنَةُ تاجِرٍ مِنْ أَهْلِ أَنْطاكْيَة قَرَأَتْ أَدَبَ العَرَبِ، كَما قَرَأَتْ أَدَبَ الفُرْسِ، وكانَ لَها أَخٌ قُتِلَ في أَثْناءِ الحِصارِ، وماتَ أَبوها عِنْدَ أَبْوابِ المَدينةِ يَوْمَ الفَتْحِ تَحْتَ سَنابِكِ خَيْلِ الجَيْشِ الظَّافِرِ.

وبالرَّغْمِ مِنْ أَنّ سَلامِش كانَ يَبْدو صامِتًا ساكِنًا وهُوَ يَسْتَمِعُ إلى تِلْكَ القِصَّةِ مِنَ الشَّيْخِ، إلّا أَنَّهُ شَعَرَ بِحَنينٍ جارِفٍ نَحْوَ تِلْكَ الفَتاةِ، فَباتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ والأَحْلامُ تَتَخَلَّلُ نَوْمَهُ حَتّى لاحَ الفَجْرُ، فَصَحا وهُوَ مُضْطَرِبُ النَّفْسِ قَلِقُ البَالِ. غَيْرَ أَنَّ أَعْمالَ اليَوْمِ لَمْ تَتْرُكْ لَهُ مُتَّسَعًا لِلتَّفْكيرِ في الفَتاةِ ولا في هُمومِها، حَتّى إذا انْقَضى اليَوْمُ وعادَ في المساءِ إلى خَيْمَتِهِ، بادَرَ بالذَّهابِ إِلَيْها، ولَمّا اقْتَرَبَ مِنْها هَذِهِ المَرَّةَ تَرَدَّدَ وتَرَفَّقَ، ووَقَفَ إلى جِوارِها هُنَيْهَةً يتَأَمَّلُها في صَمْتٍ، ثُمَّ قالَ بِصَوْتٍ خَفيضٍ: «لَعَلَّكِ اليَوْمَ أَهْدَأُ مِمَّا كُنْتِ عَلَيْهِ بِالأَمْسِ.»

ولَمْ تَرْفَعْ إِلَيْهِ بَصَرَها، بَلْ بَقِيَتْ جالِسَةً ورَأْسُها بَيْنَ كَفَّيْها، فَحانَتْ مِنْهُ التِفاتَةٌ فَرَمَقَ بِبَصَرِهِ فَجْأَةً صينِيَّةً صَغيرَةً قَريبَةً مِنْها، عَلَيْها طَعامٌ لَمْ تَمْتَدَّ إِلَيْهِ يَدٌ، فَقالَ في عِتابٍ وهُوَ يَتَكَلَّفُ الهُدوءَ: «هَلْ تُريدينَ أَنْ تَموتي جُوعًا؟»



ولمْ تُجِبْهُ بِحَرْفٍ، ورجَعَتْ تَبْكي وتُحاوِلُ كِتْمانَ نَحيبِها فَقَرُبَ مِنْها وحاوَلَ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ على رَأْسِها، وهُوَ مُحْتَرِسٌ مُتَلَطِّفٌ، ولَكِنَّهُ ما كادَ يَلْمِسُها حَتّى نَفَرَتْ مِنْهُ وصاحَتْ بِهِ قائِلَةً: «أقولُ لَكَ اتْرُكْني.»

وأبْعَدَ يَدَهُ عَنْها، وتَراجَعَ ناظِرًا إلَيْها لَحْظَةً، ثُمَّ خَرَجَ مُسْرِعًا، وفي قَلْبِهِ حُزْنٌ وقَلَقٌ.

وقَضى سَلامِشُ ذَلِكَ اليوْمَ وهُوَ مُوزَّعُ القَلْبِ كَئِيبًا، وقَدْ رانَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وهُوَ يُصَرِّفُ أُمورَ الحُكْمِ، حَتّى عَجِبَ النّاسُ أَنْ تكونَ تِلْكَ حالُهُ بَعْدَما أَحْرَزَ مِنَ النَّصْرِ، وما بَلَغَ مِنَ المَجْدِ.

وما كادَ يَنْتَهي مِنْ عَمَلِهِ، حَتّى أَسْرَعَ إلى خَيْمَةِ الفَتاةِ، وكانَتْ لا تَزالُ على ما كانَتْ عَلَيْهِ في الصَّباحِ، والمائِدَةُ الصَّغيرَةُ عَلَيْها عَشاءٌ لَمْ تَمْتَدَّ إلَيْهِ يَدٌ.

ونَظَرَ إلَيْها مَلِيًّا (مُدّةً طَويلةً)، ثُم قالَ بِرِفْقٍ: «أما تُكَلِّمينني؟»

واقْتَرَبَ مِنْها، وأرْدَفَ قائِلًا: «إنَّني أرْجُوكِ أَنْ تَنْظُري إلَيَّ، فلا تَتْرُكِينَني أَتَأَلَّمُ كُلَّما رَأَيْتُكِ على هَذِهِ الحالِ. انْطِقي بِما يَجولُ في نَفْسِكِ ولَوْ كانَ قاسِيًا.»

ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ إلى رَأْسِها، ومَسَحَ عَلَيْهِ مُتَلَطِّفًا، فَلَمْ تَنْفُرْ هَذِهِ المرَّةَ ولَمْ

تَغْضَبْ، ولَكِنَّها بَقِيَتْ ساكِنَةً في مَكانِها مُكْتَئِبَةً.

فَجَلَسَ إلى جِوارِها يُحاوِلُ أَنْ يُحَدِّثَها، وهِيَ لا تُجِيبُ إلّا بِدَمْعَةٍ بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ في عَيْنَيْها، فتَمْسَحُها بمِنْدِيلٍ في يَدَيْها، ثُمَّ تَعودُ إلى وُجومِها وسُكونِها.

قالَ لَها ولِسانُهُ يَنِمُّ على مِقْدارِ عَطْفِهِ وحُزْنِهِ: «لَكَمْ تُؤْلِمُني دُمُوعُكِ وحُزْنُكِ، واللهِ لَوْ عَرَفْتُ أَنَّ ألمكِ يَزولُ بِإبْعادِكِ عَنّي لَفَعَلْتُ.»

وتَوَقَّفَ، وأَطْرَقَ قَليلًا، ثُمَّ سَأَلَها في حَيْرَةٍ: «أَلَكِ أَهْلٌ في عَكّا أَوْ في مَدينَةٍ أُخْرى مِنَ المدُنِ فَأُرْسِلَكِ إلَيْهِمْ؟»

هَزَّتْ رَأْسَها قائِلَةً: «لَيْسَ لي أَهْلٌ.»

ورَفَعَتْ إلَيْهِ وَجْهَها المُمْتَلِئَ بِالدُّموعِ، وقالَتْ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «قَدْ قَتَلْتَهُمْ جَميعًا! ويا لَيْتَني قُتِلْتُ مَعَهُمْ!»

ثُمَّ شَهِقَتْ بالبُكاءِ، واسْتَرْسَلَتْ في هِزَّةٍ مُرَّةٍ مِنَ الحُزْنِ؛ فاعْتَصَرَ الحُزْنُ قَلْبَ سَلامِش، فَلَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ، وقالَ لَها في تَأَثُّرٍ: «إنَّني أَرْحَمُكِ في حُزْنِكِ الَّذي لا أَمْلِكُ دَفْعَهُ. كانَ أَهْلُكِ أَعْدائي وكُنّا مَعًا في مَيْدانِ قِتالٍ يَسْعَوْنَ فيهِ إلى قَتْلِنا، كَما كُنّا نَسْعَى إلى قَتْلِهِمْ. وهَلْ لِلشُّجْعانِ مَصيرٌ إلّا المَوْتَ في مَيْدانِ الحَرْبِ؟ وَلَوْ كانَ أَهْلُكِ بَيْنَ

هَؤُلاءِ الأسْرَى لَما تَرَدَّدْتُ في العفْوِ عَنْهُمْ مِنْ أَجْلِكِ، ولَكِنَّهُمْ في غَيْرِ حاجَةٍ إليَّ ولا إِلَيْكِ. إنَّ حُزْنَكِ يُؤْلِمُنِي وإن كانَتْ كِبْرِياؤُكِ قَهَرَتْ كِبْرِيائي.»

وتَوَقَّفَ قَليلًا يُفَكِّرُ، ثُمَّ أَرْدَفَ: «إِذا شِئْتِ أَنْ تَبْعُدي إلى مَكانٍ تَخْتارِينَهُ كانَ لَكِ ما تَشائِينَ، وإِنْ أَحْبَبْتِ المُقامَ هُنا، كُنْتِ في أَعَزِّ مَكانٍ عِنْدي.»

نَظَرَتِ الفَتاةُ نَحْوَهُ وقَدْ زَالَ مِنْ عَيْنَيْها ذَلِكَ البَريقُ القاسي الَّذي كانَ يَلوحُ مِنْها كُلَّما نَظَرَتْ نَحْوَهُ مِنْ قَبْلُ، وأَطالَتْ نَظْرَتَها إِلَيْهِ حِينًا، ثُمَّ أَغْضَتْ (أَغْمَضَتْ عَيْنَيْها) صامِتَةً.

ولَمْ يَذْهَبْ سَلامِشُ ذَلِكَ المساءَ إلى خَيْمَتِهِ حَتّى كانَ قَدْ قاسَمَها بَعْضَ الطَّعامِ الَّذي كانَ عَلى المائِدَةِ.

وجاءَ بَرِيدُ السُّلْطانِ في الصَّباحِ يَحْمِلُ إلى سَلامِشَ أَمْرًا بالسَّيْرِ إلى دِمَشْقَ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الجُنْدِ، ووَهَبَ لَهُ المدينَةَ يَتَصَرَّفُ في غَنائِمِها كَما يَشاءُ اعْتِرافًا بِبَسالَتِهِ وجَزاءً عَلى انْتِصارِهِ العَظيمِ.

وقَضى سَلامِشُ يَوْمَيْنِ كامِلَيْنِ في الاسْتِعْدادِ لِلسَّيْرِ إلى دِمَشْقَ، وبَكَّرَ في يَوْمِ الرَّحيلِ إلى خَيْمَةِ الفَتاةِ خَفيفَ الخَطْوِ، مُتَهَلِّلَ النَّفْسِ، فَرَآها

راقدَةً على أَرِيكَةٍ. فَلَمَّا وَقَعَ بَصَرُها عَلَيْهِ ارْتَسَمَ على وَجْهِها طَيْفُ ابْتِسامَةٍ، واعْتَدَلَتْ في مَكانِها. ولما حَيّاهَا تَحِيَّةَ الصَّباحِ رَدَّتْ تَحِيَّتَهُ، ثُمَّ جَلَسَ قَرِيبًا مِنْها. وجَعَلَ يُحَدِّثُها، وكانَ صَوْتُهُ وهُوَ يَتَحَدَّثُ إِلَيْها هَذِهِ المرَّةَ خَفِيفًا مُهْتَزَّ النَّبَراتِ.

قَالَ لَها: «لَقَدْ أَمَرني السُّلْطانُ أَنْ أَسِيرَ إلى دِمَشْقَ.»

فَلَمْ تُجِبْهُ، بَلْ نَظَرَتْ نَحْوَهُ مُنْتَظِرَةً أَنْ يُتِمَّ حَديثَهُ، فاسْتَمَرَّ قائِلًا: «وقَدْ وَهَبَ السُّلْطانُ العَظِيمُ، حَفِظَهُ اللهُ، هَذِهِ المدينَةَ لي فَهَلْ لَكِ مَطْلَبٌ فيها؟»

فَأَطْرَقَتِ الفَتاةُ قَليلًا، ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَيْهِ مَلِيًّا، ثُمَّ صاحَتْ وهِيَ تَمُدُّ يَدَيْها نَحْوَهُ قائِلَةً: «إِذًا فالمدينَةُ في يَدَيْكَ؟»

وأَمَّنَ على كَلامِها قائِلًا: «هِيَ كَذَلِكَ، فاطْلُبي ما تُحِبّينَ.»

فَسَأَلَتْهُ الفَتاةُ: «ماذا تَفْعَلُ بِالأَسْرى؟»

وتَبَسَّمَ سَلامِشُ وهُوَ يَقولُ: «هُمْ لَكِ، يا...»

وعَنَّ لهُ شَيْءٌ، فَسَأَلَها فَجْأَةً: «لَمْ أَعْرِفِ اسْمَكِ بَعْدُ.»

أَجابَتْ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ مُمْتَلِئٍ بالفَرْحَةِ: «أُورنُورْيا!»

فَقامَ ومَدَّ يَدَهُ نَحْوَها وقالَ: «هُمْ لَكِ، يا أُورنُورْيا!»

ومَدَّتْ يَدَيْها وأمْسَكَتْ بِيَدَيْهِ المَمْدودَتَيْنِ قائِلَةً: «ما اسْمُكَ أَنْتَ؟»

أَجابَها بأَسًى: «سَلامِشْ.»

فَرَدَّدَتْ قائِلَةً وكَأَنَّما تَتَمَعَّنُ في الاسْمِ: «سَلامِشْ!»

ورَفَعَتْ إلَيْهِ رَأْسَها، ثُمَّ تَرَكَتْ يَدَيْهِ وأَطْرَقَتْ إلى الأرْضِ، ولَكِنَّهُ اسْتَمَرَّ قائِلًا: «وأُحِبُّ أنْ أَعْرِفَ أَيْنَ تَذْهَبينَ. لَكِ أَنْ تَرْجِعي إلى دارِكِ إذا شِئْتِ عَزيزَةً في ظِلِّ السُّلْطانِ العَظيمِ. ولَكِ أَنْ تَذْهَبي حَيْثُ شِئْتِ في دَوْلَتِهِ الفَسيحَةِ.»

ورَفَعَتِ الفَتاةُ رَأْسَها نَحْوَهُ مَرَّةً أُخْرى، وتَرَدَّدَتْ قَليلًا، ثُمَّ قالَتْ في حَياءٍ: «وأنْتَ؟»

أَجابَ سَلامِشْ وهُوَ يُجاهِدُ في أَنْ يُخْفِيَ اضْطِرابَهُ: «اليَوْمَ أَسيرُ إلى دِمَشْقَ.»

ومَا كادَ يَهُمُّ بِتَرْكِها ويَنْصَرِفُ، حَتّى رأى يَدَيْها تَمْتَدّانِ إلَيْهِ بِحَرارَةٍ، وقالَتْ بِصَوْتٍ عَذْبٍ رَقيقٍ مُفْعَمٍ بالحُبِّ والمَوَدَّةِ: «سَلامِشْ!»

فكادَ قَلْبُ سَلامِش يَتَوَقَّفُ عَنِ الخفَقانِ مِنْ فَرْطِ سَعادَتِهِ، ونَظَرَ إلَيْها غَيْرَ مُصَدِّقٍ، فَأَوْمَأَتْ بِرَأْسِها وهِيَ تَقولُ:

«وأنا كَذَلِكَ، يا سَلامِشُ، مَعَكَ إلى دِمَشْقَ أَسِيرُ، فالمِحْنَةُ تَغْسِلُ الدُّموعَ، وتَأْسُو الجِراحَ!»

* * *

لَيْلى والمجْنونُ

قيسُ بنُ المُلَوَّح فَتَى عَرَبِيٌّ مِنْ ساداتِ العَرَبِ، مَنَحَهُ اللهُ قُدْرَةً فائِقَةً عَلى نَظْمِ الشِّعْرِ وإلْقائِهِ، وخاصَّةً شِعْرَ الغَزَلِ، فَشاعَ اسْمُهُ وذاعَ صيتُهُ في النّاحِيَةِ الَّتي انْتَقَلَ إلَيْها مَعَ أَهْلِهِ وعَشيرَتِهِ.

وذاتَ يَوْم خَرَجَ قيسٌ وقَدِ امْتَطى ناقَتَهُ، وارْتَدى حُلَّتَيْنِ مِنْ حُلَلِ المُلوكِ، فَمَرَّ بامْرَأَةٍ مِنْ نِساءِ بَني عُقيل يُقالُ لَها كَريمةُ وعِنْدَها نِسْوَةٌ يَتَحَدَّثْنَ وفيهِنَّ لَيْلى العامِرِيَّةُ فَأَعْجَبَهُنَّ جَمالُهُ وكَمالُهُ، فَدَعَوْنَهُ إلى النُّزولِ والحديثِ، فَنَزَلَ وجَعَلَ يُحَدِّثُهُنَّ ويُنْشِدُهُنَّ مِنْ أَشْعارِهِ، وهُنَّ مُعْجَباتٌ بِهِ فِيما يَرى.

ولَمّا أَعْجَبَهُ ذَلِكَ مِنْهُنَّ، أَمَرَ خادِمًا لَهُ كانَ مَعَهُ، فَعَقَرَ ناقَتَهُ، وقُمْنَ إلَيْها فَجَعَلْنَ يَشْوينَ ويَأْكُلْنَ حَتّى أَقْبَلَ اللَّيْلُ، فإذا بِشَابٍّ حَسَنِ الوَجْهِ مِنْ حَيِّهِنَّ يُسَمَّى «مُنازِل» يُقْبِلُ، فَفُوجِئَ قَيس بالنِّسْوَةِ يُرَحِّبْنَ بِالفَتى تَرْحيبًا حارًّا، ويُقْبِلْنَ عَلَيْهِ بِحَفاوَةٍ شَديدَةٍ.



ورُحْنَ مَعَهُ في حَديثٍ طَويلٍ لَمْ يَرْعَيْنَ فيهِ وُجودَ قَيْس، فَلَمّا رَأى قَيْس ذَلكَ مِنْ فِعْلِهِنَّ غَضِبَ، وقَامَ وتَرَكَهُنَّ قائِلًا: «أأَعْقِرُ ناقتي مِنْ أجْلِكُنَّ فتَنْصَرِفْنَ عَنّي لِوَصْلِ مُنازِل؟»

هَبَّ مُنازِل واقِفًا وقالَ بِلَهْجَةِ التَّحَدّي: «هَلْ نَتَصارَعُ أوْ نَتَرامى بالسِّهامِ؟»

أَجابَهُ قيس في تَحَدٍّ: «إنْ شِئْتَ ذَلِكَ، فَقُمْ إلى حَيْثُ لا تَراهُنَّ ولا يَرينَكَ، ثُمَّ ما شِئْتَ فافْعَلْ.»

قالَ ذَلِكَ وانْصَرَفَ لِكَيْ يَتَقابَلا مَتى انْتَصَفَ النَّهارُ.

ولَمّا أَصْبَحَ لَبِسَ حُلَّتَهُ، ورَكِبَ ناقَتَهُ، ومَضى إلى دارِ كريمة لَعَلَّهُ يَجِدُ هُناكَ مُنازِلًا خَصْمَهُ فيُصارِعُهُ وإنْ دَعاهُ الأمْرُ إلى قِتالِهِ يُقَاتِلهُ.

ولَكِنْ ما إِنْ شاهَدَتْ كريمة والنِّسْوةُ لَدَيْها ما هُوَ عَلَيْهِ مِنْ عَزْمٍ عَلى مُصارَعَةِ مُنازِل ومُقاتَلَتِهِ حَتَّى نَزَعْنَ إلى السِّلْمِ، فَدَعَوْنَهُ إلى النُّزولِ، وقُلْنَ له: «هَلْ لَكَ في مُحادَثَةِ مَنْ لا يَشْغَلُهُ عَنْك مُنازل ولا غَيْرُهُ؟»

قالَ: «إي لَعَمْري!»

وأَشَرْنَ إلى لَيْلى العامِرِيَّةِ الَّتي كانَتْ تَجْلِسُ بَيْنَهُنَّ بِالأَمْسِ، وقُلْنَ: «ها هِيَ ذي.»

وَنَظَرَ قَيْسٌ إلى لَيْلى، الَّتي كانَتْ جالِسَةً بِفِناءِ بَيْتِها، وعِنْدَها صَبايا يَتَحَدَّثْنَ مَعَها، فَهالَهُ ما هِيَ عَلَيْهِ مِنْ جَمالٍ ووَقارٍ، فَنَسِيَ عِنْدَما شاهَدَها رَغْبَتَهُ في صِراعِ مُنازِل. وأَقْبَلَ عَلَيْها يَتَحَدَّثُ، فَتَحَدَّثَتْ إِلَيْهِ بِصَوْتٍ كَأَنَّهُ صَوْتُ البُلْبُلِ الغَرِدِ، فَوَقَعَتْ في قَلْبِهِ، وشُغِفَ بِها حُبًّا.. وطَفِقا يَتَبادلانِ الحديثَ وهُما في غِنًى عَنْ كُلِّ ما حَوْلَهُما.

وأَخَذَتِ الصَّبايا يَنْسَحِبْنَ مِنْ حَولِهِما عِنْدَما شَعَرْنَ بِمُلْهاتِهِما عَنْهُنَّ. وبَيْنَما هُما يُواصِلانَ الحَديثَ أَدْرَكَ قَيْسٌ أَنَّ لَيْلى الَّتي تَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ هَذِهِ هِيَ لَيْلى رَفيقَةُ صِباهُ، حَيْثُ كانا يَرْعَيانِ غَنَمَ الأَهْلِ، ويَلْعبانِ في سَفْحِ جَبَلِ التَّوْبادِ حَتَّى تَأْذَنَ الشَّمْسُ بالمَغيبِ، ويَعودا أَدْراجَهُما إلى مَنازِلِ الحيِّ. وراحا يَتَذاكَرانِ بِشَوْقٍ شَديدٍ طُفولَتَهُما، فَازْدادَ تَقارُبُهُما، وشَعَرا مَعًا أَنَّ الحُبَّ قَدْ غَزا قَلْبَيْهِما.

وعَـادَ قَيْـسٌ إلى مَنْزِلِهِ وهُـوَ لا يَكادُ يَعي الطَّريقَ إلـى دارِهِ مِنْ فَرْطِ النَّشْـوَةِ، ولَـمْ ينَـمْ لَيْلَتَـهُ، بَـلْ جَلَسَ حَتَّـى الصَّباحِ يَسْـتَعيدُ مـا حَدَثَ وصُورَتُها شـاخِصَةٌ أَمامَ عَيْنَيْهِ، ووَقْعُ صَوْتِها العَذْبِ الرَّخيمِ يَنْسابُ في أُذُنَيْـهِ. وظَلَّ نَهارَهُ كَذَلِكَ صامِتًا مُنْتَشِـيًا حَتّى أَذِنَتِ الشَّـمْسُ بِالرَّحيلِ، وأَوْشَكَ المَسـاءُ عَلى الحُلولِ، فَنَهَضَ مُسْـرِعًا وارْتَدى أَفْضَلَ ما عِنْدَهُ مِـنْ ثِيـابٍ وأَتاها، فَاسْـتَقْبَلَتْهُ بِحَفـاوةٍ عَظيمَـةٍ. وجَلَسَ إِلَيْهـا فَحادَثَتْهُ

وحَادَثَها فأكْثَرا، وكُلٌّ مِنْهُما مُقْبِلٌ عَلى صاحِبِهِ مُعْجَبٌ بِهِ، فَلَمْ يَزالا كَذَلِكَ حَتَّى مَضى شَطْرٌ مِنَ اللَّيْلِ غَيْرُ يَسيرٍ، فانْصَرَفَ إلى أَهْلِهِ، فَباتَ بِأَطْوَلِ لَيْلَةٍ شَوْقًا إلَيْها، حَتّى إذا أَسْفَرَ الصُّبْحُ عادَ إلَيْها، فَلَمْ يَزَلْ عِنْدَها حَتّى أَمْسى، ثُمَّ انْصَرَفَ إلى أَهْلِهِ، وقَدِ ازْدادَ هُيامًا ونَشْوَةً. وأهابَ بالنَّومِ أَنْ يَأْتِيَهُ، واجْتَهَدَ أَنْ يُغْمِضَ فَعَزَّ عَلَيْهِ النَّوْمُ، وجانَبَهُ الغَمْضُ.

وعاشَ قَيْسٌ عَلى تِلْكَ الحالِ أَيّامًا طِوالًا، يُهَيِّجُهُ الشَّوْقُ، ويُهَدْهِدُهُ الحَنينُ حَتّى جاءَ لَيْلى يَوْمًا كَما كانَ يَجيءُ، إلّا أَنَّهُ ما إنْ أَقْبَلَ يُحادِثُها حَتّى وجَدَها تُعْرِضُ عَنْهُ، وتُوَلّي وَجْهَها شَطْرَ فَتًى مِنَ الحَيِّ أَقْبَلَ عَلَيْها، فَراحَتْ تُحادِثُهُ في هَمْسٍ حَديثًا طويلًا، في حين وَقَفَ قَيْسٌ يَنْظُرُ إلَيْهِما ذاهِلًا وهُوَ يَقولُ في نَفْسِهِ غَيْرَ مُصَدِّقٍ: «هَكَذا.. حَتّى مَنْ أَحْبَبْتُها وأَحَبَّتْني مُنْذُ صِبانا تَصُدُّ عَنّي عَلى مَشْهَدٍ مِنّي!»

* * *

ونَظَرَتْ لَيْلى إلى وَجْهِ قَيْسٍ فَوَجَدَتْهُ قَدْ شَحَبَ، وامْتَقَعَ لَوْنُهُ فَقالَتْ لِلْفَتَى: «انْصَرِفْ.»

وما كادَ الفَتى يَنْصَرِفُ، حَتّى أَقْبَلَتْ لَيْلى نَحْوَ قَيْسٍ وقالَتْ: «ما كانَ بي مِنَ الفَتى مِنْ إعْجابٍ لِيَصْرِفَني عَنْكَ، إنَّما لَجَأْتُ إلى ذَلِكَ،

لِكَيْ أَعْرِفَ إِنْ كانَ عِنْدَكَ مِثْلُ الَّذي عِنْدي نَحْوَكَ، فَقَدْ عَلِقَتْ بِقَلْبِي مِثْلَما عَلِقْتُ بِقَلْبِكَ.»

وأَنْشَأَتْ بَيْتَيْنِ وَصَفَتْ فيهِما ما هِيَ عَلَيْهِ مِنْ حُبٍّ نَحْوَه، فَلَمّا سَمِعَ قَيْسٌ قَوْلَها، وأَحَسَّ فيهِ نَبْرَةَ صِدْقِها شَهِقَ شَهْقَةً شَديدَةً وأُغْمِيَ عَلَيْهِ، فَمَكَثَ على ذَلِكَ ساعَةً. ولَمّا رَأَتِ الصَّبايا ذَلِكَ، أَسْرَعْنَ إِلَيْهِ ونَضَحْنَ الماءَ عَلى وَجْهِهِ حَتّى أَفاقَ.

وتَمَكَّنَ حُبُّ كُلٍّ واحِدٍ مِنْهُما في قَلْبِ صاحِبِهِ حَتّى بَلَغَ مِنْهُ كُلَّ مَبْلَغٍ. ومَرَّتِ الأَيّامُ عَلَى العاشِقَيْنِ هَنيئَةً، وقَدْ بَلَغَ مِنْهُما الشَّوْقُ مَبْلَغًا جَعَلَهُما لا يَكادانِ يَفْتَرِقانِ، كَما كانا أَيّامَ صِباهُما.

وكانَ قَيْسٌ قَدْ تَحدَّثَ مَعَ أَبيهِ بِشَأْنِ أَبي لَيْلى، فَعَرَفَ مِنْ أَبيه أَنَّهُ كانَتْ بَيْنَهُ وبَيْنَ أَبي لَيْلى صِلَةٌ وصَداقَةٌ، عِنْدَما كانا مُتَجاوِرَيْنِ بِالقُرْبِ مِنْ «جَبَلِ التّوبادِ» الَّذي كانَ الصَّبِيّانِ: قَيْسٌ ولَيْلى يَرْعَيانِ عِنْدَهُ غَنَمَ أَهْلِهِما. وشَعَرَ الأَبُ بِالفَرْحَةِ المَمزوجَةِ بِالرِّضا والسَّعادَةِ.. فَها هُما قَدْ عادا مَرَّةً أُخْرى وصارا قَريبَيْنِ مِنْ بَعْضِهِما!

رَقَصَتْ عَصافيرُ الفَرَحِ في صَدْرِ قَيْسٍ، فَأَسْرَعَ إِلى دارِ لَيْلى لِيُخْبِرَها بِالأَمْرِ، فَتَلَقَّتِ الخَبَرَ بِفَرْحَةٍ غامِرَةٍ، فَعَمَدا مَعًا إِلى إِغْراءِ أَبَوَيْهِما لِيَتَلاقَيا

ويَتَوادّا مِنْ جَديدٍ.

وحَدَثَ أَنْ طَرَقَ بَيْتَ قيسٍ ذاتَ لَيْلَةٍ أضْيافٌ، ولَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الإدامِ ما يَكْفي، فَبَعَثَهُ أَبوهُ إلى مَنْزِلِ أبي لَيْلى يَطْلُبَ مِنْهُمْ بَعْضَ الإدامِ. فَأتاهُ قَيْسٌ وَوَقَفَ عَلى خِبائِهِ، فَصاحَ بِهِ، فَقالَ لَهُ: «ما تَشاءُ؟»

قالَ قَيْسٌ بَعْدَما أخْبَرَهُ بِاسْمِهِ: «طَرَقَنا ضَيْفانِ ولا إدامَ عِنْدَنا يَكْفي لَهُمْ، فَأَرْسَلَني أبي نَطْلُبُ مِنْكَ إدامًا.»

ونادى الأبُ عَلى ابْنَتِهِ لَيْلى قائِلًا: «يا لَيْلى، أَخْرِجي إلَيْهِ وِعاءَ الإدامِ فامْلَئي لَهُ إناءَهُ مِنَ السَّمْنِ.»

وقامَتْ لَيْلى تَفْعَلُ ما طَلَبَهُ أَبوها، واتَّجَهَتْ نَحْوَ قَيْسٍ حَبيبِها، فَجَعَلَتْ تَصُبُّ السَّمْنَ في إناءٍ كانَ يَحْمِلُهُ قَيْسٌ. وراحا يَتَناجَيانِ، فَأَلْهاهُما الحَديثُ فَغَفِلا مِنْ فَرْطِ نَشْوَتِهِ عَنِ الإناءِ، فإذا هُوَ قَدِ امْتَلأَ، وأَخَذَ يَسيلُ السَّمْنُ مِنْهُ حَتَّى بَلَّلَ ثِيابَهُما، وجَرى عَلى أَقْدامِهِما.

وما إِنْ شاهَدَتْ لَيْلى قَيْسًا وهُوَ يُغادِرُ الخِباءَ (الخَيْمَةَ) وقَدْ ابْتَلَّتْ ثِيابُهُ حَتّى راحَتْ تَضْحَكُ. وظَلَّتْ ضَحَكاتُها تَرِنُّ في أُذُنِ قَيْسٍ كأَنَّها نَغَمٌ مُوسيقِيٌّ باهِرٌ عَزَفَهُ فَنّانٌ بارِعٌ.

وجَعلَ قَيْسٌ يَفْتَعِلُ الأَسْبابَ الَّتي تُتيحُ لَهُ أَنْ يَطْرُقَ دارَ لَيْلى لِيَكونَ

إلى جِوارِها، فَأَتاهُمْ ذاتَ مَرَّةٍ يَطْلُبُ نارًا. وكانَ مُتَّشِحًا بِرِداءٍ جَديدٍ، فَأَخْرَجَتْ لَيْلى نارًا على لَوْحٍ وأَعْطَتْها لَهُ، ووَقَفا يَتَناجَيانِ كَعادَتِهِما، فَأَلْهاهُما حَديثُهُما عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَوْلَهُما، فَلَمْ يَدْرِيا باللَّوحِ الَّذي احْتَرَقَ فَأَحْرَقَ يَدَ قَيْسٍ وَرِداءَهُ. ولَمْ يَشْعُرْ قَيْسٌ بِما وَقَعَ لَهُ، ولَمْ يُحِسَّ مِنْ نَشْوَةِ الحَديثِ والمُناجاةِ أَثَرَ النّارِ في يَدِهِ، ولا بِاشْتِعالِها في ثَوْبِهِ، فَلَمّا وَجَدَ الحَبيبانِ ذَلِكَ لَمْ يَسْتَطيعا أَنْ يَكْتُما ضَحَكاتِهِما رَغْمًا عَنْهُما.

وقالَتْ لَيْلى وهِيَ تُحاوِلُ مُغالَبَةَ الضَّحِكَ: «عَلَيْكَ كُلَّما جِئْتَ، يا قَيْس، أَنْ تَحْمِلَ مَعَكَ ثَوْبًا إضافِيًّا!»

ومَرَّتِ الأَيّامُ والحَبيبانِ قَدِ ازْدادا بِبَعْضِهِما تَعَلُّقًا، مِمّا جَعَلَهُما لا يَكادانِ يَفْتَرِقانِ إلّا عِنْدَما يَخْلُوانِ إلى مَخْدَعَيْهِما لِلنَّوْمِ، ولا يَنامُ أَحَدُهُما إلّا وصورَةُ الآخَرِ هِيَ آخِرُ ما يَتَمَثَّلُ أَمامَهُ قَبْلَ النَّوْمِ.

وكانَتْ أَشْعارُ قَيْس في لَيْلى قَدْ ذاعَتْ وراحَتْ تَرْويها النِّساءُ قَبْلَ الرِّجالِ. وكُنَّ يَقُلْنَ في إعْجابٍ: «وهَلْ وَصَفَ شاعِرٌ امْرأَةً بِأَرْوَعَ مِمّا وَصَفَ بِهِ قَيْس حَبيبَتَهُ لَيْلى؟» وأَخَذَتِ النّاسُ تَتَساءَلُ: «أما آنَ الأَوانُ لِيَخْطُبَ قَيْسُ بنُ المُلَوَّحِ لَيْلى؟»

وكانَ قَيْسٌ قَدْ طَلَبَ مِنْ أَبيهِ أَنْ يَذْهَبَ لِيَخْطُبَ لَهُ لَيْلى، فَرَحَّبَ أَبوهُ

وعَشيرَتُهُ بِذَلِكَ، بَيْدَ أَنَّهُ ما كادَ الأَبُ يَتَهَيَّأُ هُوَ وقَوْمُهُ لِزِيارَةِ أبي لَيْلى طالِبًا خِطْبَتَها لابْنِهِ، حَتّى تَرامى إِلَيْهِما أَنَّ شابًّا يُسَمّى وَرْدَ بنَ مُحَمَّد العُقَيْلِيّ قَدْ ذَهَبَ إلى أبي لَيْلى طالِبًا خِطْبَتَها، وبَذَلَ (أَعْطَى) لَها مَهْرًا عَشْرًا مِنَ الإِبِلِ وَراعِيها. فَلَمّا عَلِمَ قَيْسٌ بِذَلِكَ، أَسْرَعَ إلى أَبيهِ لِيَصْحَبَهُ إلى أبي لَيْلى لِيَخْطُبَها لَهُ، فَذَهَبَ الأَبُ وبَذَلَ لَها خَمْسينَ ناقَةً حَمْراءَ كَطَلَبِ ابْنِهِ حَتّى يَكونَ مَهْرُ لَيْلى مِنْ أَكْبَرِ المُهورِ.

قالَ أَهْلُها: «نَحْنُ مُخَيِّروها بَيْنَ قَيْسٍ ووَرْدِ بنِ العُقَيْلِيّ، فَمَنِ اخْتارَتْ تَزَوَّجَتْ.»

وكانَ قَيْسٌ يَعْلَمُ مَدى حُبِّ لَيْلى لَهُ، فَهُوَ يَلْمِسُ ذَلِكَ في كُلِّ شَيْءٍ، في حَديثِها مَعَهُ، وفي لَهْفَتِها عَلى لِقائِهِ، وارْتِياحِها الشَّديدِ إِلَيْهِ كُلَّما جَلَسا مَعًا، وعِنايَتِها بِكُلِّ ما يَهْتَمُّ بِهِ، ورِعايَتِها لِمَشاعِرِهِ، وتَرْحيبِها بِزِيارَتِهِ. وهِيَ تُدْرِكُ تَمامًا كَمْ يُحِبُّها هُوَ؛ فَهَلْ يُوجَدُ مُحِبّانِ عَلى دَرَجَةِ حُبِّهِما، وها هُوَ يَبْذُلُ لَها المَهْرَ الَّذي يَنْشُدُهُ أَهْلُها. غَيْرَ أَنَّهُ فَجأَةً خَرَجَتْ لَيْلى وقالَتْ: «لَقَدِ اخْتَرْتُ وَرْدًا!»

سَقَطَ قَيْسٌ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ. وأَسْرَعَ قَوْمُ قَيْسٍ إِلَيْهِ، وَراحوا يَنْضَحونَ وَجْهَهُ بِالْماءِ، حَتّى أَفاقَ، وأَخَذَ يُجيلُ النَّظَرَ حَوْلَهُ في ذُهولٍ، وهُوَ لا يُفارِقُهُ السُّؤالُ: «كَيْفَ رَفَضَتْني لَيْلى رَغْمَ ما نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ عَهْدِ الهَوى.



وفَضَّلَتْ وَرْدًا الَّذي لَمْ تُشاهِدْهُ مِنْ قَبْلُ؟ كَيْفَ ضَحَّتْ بِهَذِهِ المَوَدَّةِ الَّتي ربطَتْ بَيْنَ قَلْبَيْنا، ووَحَّدَتْ مَشاعِرَنا؟ لا بُدَّ أَنَّ أَمْرًا قَدْ حَدَثَ!»

وما حَدَثَ هُوَ عاداتُ العَرَبِ وتَقاليدُهُمْ؛ فَمُنْذُ أَنْ تَناشَدَ النَّاسُ شِعْرَهُ في لَيْلى ووَصَلَ خَبَرُ حُبِّهِما إلى قَوْمِها، وهُمْ يَشْعُرونَ بِمَعَرَّةٍ شَديدَةٍ، فَغَضِبوا وثاروا عَلَيْها، وطَلَبوا أَنْ يَبْعُدَ قَيْسٌ عَنْها فَزواجُهُ مِنْها إنَّما يَعْني تَأْكيدًا لِلنَّاسِ أَنَّهُمُ اضْطُرّوا لِزَواجِها مِنْ قَيْس بَعْدَما افْتَضَحَهُمْ بِعِشْقِ ابْنَتِهِمْ لَهُ في شِعْرِهِ.

ولَمّا تَقَدَّم إلَيْها وَرْد، وتَقَدَّمَ قَيْسٌ، دَخَلوا إلَيْها فَقالوا: «واللهِ لَئِنْ لَمْ تَخْتاري وَرْدًا لَنُمَثِّلَنَّ بِكِ.»

واضْطُرَّتْ لَيْلى إلى اخْتِيارِ وَرْد عَلى كُرْهٍ مِنْها!

وكانَ قَيْسٌ مُذْ أَنْ عَلِمَ بِخَبَرِ اخْتِيارِ لَيْلى لوَرْد يُحاوِلُ أَنْ يُشاهِدَها لِيَسْأَلَها، لِيَعْرِفَ مِنْها الحَقيقَةَ. ولَكِنْ كانَ أَهْلُها قَدْ مَنَعوها عَنِ الخُروجِ مِنْ دارِها، حَتّى لا يَراها قَيْسٌ، فَظَلَّ قَيْسٌ يَحومُ حَوْلَ دارِها أَيّامًا طَويلَةً عَساهُ أَنْ يُشاهِدَها أَوْ يُشاهِدَ جارِيَةً مِنْ جَوارِيها، لِيَسْأَلَها عَمّا حَدَثَ.. حَتّى عَلِمَ مِنْ إحْدى جَواريها أَنَّ أَهْلَها هُمُ الَّذينَ أَرْغَموها عَلى ذَلِكَ، فَجَعَلَ يَمُرُّ بِبَيْتِها، فلا يَسأَلُ عَنْها ولا يَلْتَفِتُ إلى بَيْتِها ويُنْشِدُ أَشْعارًا

جَعَلَتْ كُلَّ مَنْ يَسْمَعُها لا يُمْسِكُ نَفْسَهُ عَنِ البُكاءِ.

وجَعَلَ قَيْسٌ كُلَّما مَرَّ بِدِيارِ لَيْلى يَبْكي ويُنْشِدُ أَشْعارًا يَبُثُّ فيها حُزْنَهُ العَميقَ، ويَنْزَوي في مكانٍ قَصِيٍّ في إِطْراقٍ (صَمْتٍ) وحُزْنٍ، وقَدْ عافَ الطَّعامَ، وفارَقَ النَّوْمُ جُفُونَهُ، وباتَ لا سَلْوى لَهُ سِوى المرورِ إلى جانِبِ خِباءِ لَيْلى.. ولا يَتَحَدَّثُ إلّا شِعْرًا يَرْثي فيهِ حالَهُ.. وظَلَّ عَلَى ذَلِكَ أَيّامًا طَويلَةً.

فَلَمّا رَأى قَوْمُهُ أَنَّ ابْنَهُمْ يَتَعَذَّبُ أَمَامَهُمْ عَذابًا لا يُطيقُهُ بَشَرٌ، حَزِنُوا عَلَيْهِ حُزْنًا شَديدًا.

بَيْدَ أَنَّ أَمْرَهُ لَمْ يَقِفْ عَلى الحُزْنِ واللَّوْعَةِ، بَلْ بَدَأَتْ فَجْأَةً تَظْهَرُ عَلَيْهِ أَماراتٌ مِنَ الذُّهولِ أَشْبَهُ بِأَماراتِ الجُنونِ، فَقَدْ صارَ لا يَتَحَدَّثُ مَعَ أَحَدٍ طَوالَ يَوْمِهِ.. ولا يَفْعَلُ شَيْئًا.

فَقالَ أَحَدُ أَقارِبِهِ في جَزَعٍ: «إِنَّ وَرْدًا خَطَبَها ولَكِنَّهُ لا يُحِبُّها، فَهُوَ لَنْ يَتَعَذَّبَ لِفِراقِها إذا تَرَكَها، فَلَوْ صارَحْنا أَهْلَها بِالأَمْرِ، فَقَدْ يُقْنِعون وَرْدًا بِذَلِكَ.»

فاجْتَمَعَ أَبو قَيْس وأُمُّهُ ورِجالُ عَشيرَتِهِ إلى أبي لَيْلى ونَاشَدوهُ اللهَ والرَّحِمَ، وقالوا لَهُ: «إِنَّ هَذا الرَّجُلَ لَهالِكٌ، وإِنَّ عَقْلَهُ على وَشْكِ

الذّهابِ، وإنّك فاجِعٌ بِهِ أباهُ وأهْلَهُ، فنَشَدْناكَ اللهَ والرَّحِمَ أنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ، فوَاللهِ ما هِيَ أشْرَفُ مِنْهُ، ولا لَكَ مِثْلُ مالِ أبيهِ، وحُكْمُكَ في المَهْرِ، وإنْ شِئْتَ أنْ يَخْلَعَ نَفْسَهُ إلَيْكَ مِنْ مالِهِ فَعَلَ.»

ولَكِنَّ الرَّجُلَ أَبى وأَقْسَمَ باللهِ أَنَّهُ لا يُزَوِّجُهُ إيّاها أَبَدًا.

ثُمَ عَقَّبَ قائِلًا: «أأَفْضَحُ نَفْسي وعَشيرَتي، وآتي ما لَمْ يَأْتِهِ أحَدٌ مِنَ العَرَبِ، وأجْلِبُ عَلى ابْنَتي فَضيحَةً؟»

فَانْصَرَفُوا عَنْهُ وهُمْ يتَمَيَّزونَ غَيْظًا (يتَمَزَّقونَ مِنْهُ)، ويَكادُ أبو قَيْس يَموتُ مِنْ فَجيعَتِهِ في ابْنِهِ الَّذي يَموتُ أمامَ عَيْنَيْهِ وهُوَ لا يَقْدِرُ عَلى عَمَلِ شَيْءٍ.

وأَخَذَتْ حالَةُ قَيْس تَتَدَهْوَرُ، وتَسوءُ مِنْ سَيِّئٍ إلى أَسْوأَ، وصارَ يَجْلِسُ في نادي قَوْمِهِ، فَلا يَفْهَمُ ما يُحَدَّثُ بِهِ ولا يَفْعَلُهُ، إلّا إذا ذُكِرَتْ لَيْلى، فَيَعودُ إلَيْهِ عَقْلُهُ ويُنْشِئُ فيها أجْمَلَ القَصائِدِ.

ولَمّا وَجَدَتْ أُمُّهُ مِنْهُ ذَلِكَ ارْتاعَتْ، وقَصَدَتْ بَيْتَ لَيْلى، لِتَطْلُبَ مُساعَدَتَها، فَفوجِئَتْ لَيْلى بِالأَمْرِ، وأسْرَعَتْ مَعَ أُمِّهِ خُفْيَةً مِنْ وَراءِ أهْلِها، وقالَتْ لَهُ في لَهْفَةٍ: «إنَّ أُمَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ جُنِنْتَ مِنْ أجْلي، وتَرَكْتَ الطَّعامَ والشَّرابَ، فاتَّقِ اللهَ وأَبْقِ عَلى نَفْسِكَ.»

وبَكى قَيْسٌ وراحَ يَقُولُ لَها إنَّ الحُبَّ أعْظَمُ مِمّا بالمجانينِ،

فالمجْنونُ يُصابُ بالصَّرْعِ عِنْدَما تَنْتَابُهُ نَوْبَةُ الجُنُونِ.. أمّا الحُبُّ فلا يُفيقُ مِنْهُ صاحِبُهُ أَمَدَ الدَّهْرِ.

وما إنِ اسْتَمَعَتْ مِنْهُ لَيْلى إلى ذَلِكَ، حَتّى انْفَجَرَتْ في بُكاءٍ شَديدٍ، وراحَتْ تَتَحَدَّثُ مَعَهُ حَتّى كادَ الصُّبْحُ يُسْفِرُ، ثُمَّ وَدَّعَتْهُ وانْصَرَفَتْ. وعَلِمَ قَوْمُها بما حَدَثَ مِنْها فَازْدادَ عِنادُهُمْ، وأَسْرَعُوا ونادَوْا خَطيبَها لِيُعَجِّلَ بِزَواجِهِما.

وكان قَيْسٌ في هَذا الوَقْت، قَدْ سَطَعَ في صَدْرِهِ بَريقٌ مِنَ الأمَلِ، فلَيْلى تُحِبُّهُ، وتَحْنو عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَمامَهُ سِوى اسْتِعْطافِ أَهْلِها. غيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَمُرَّ عَلى ذَلِكَ يَوْمانِ فَقَطْ، حَتّى فُوجِئَ بِخَبَرٍ اهْتَزَّتْ لَهُ أَعْطافُهُ (جَوانِبُه)، فَغُشِيَ عَلَيْهِ؛ فَقَدْ تَعَمَّدَ قَوْمُ لَيْلى أَنْ يُذيعوا خَبَرَ زِفافِها، لِيَقْطَعُوا الرَّجاءَ عَنْ قَيْس وأَهْلِهِ.. فَمَرِضَ قيْسٌ مَرَضًا شَديدًا، وحَزِنَ عَلَيْهِ أَبواهُ حُزْنًا بالِغًا، ومِمّا زادَهُما ضِيقًا وغَمًّا أَنَّهُما لَمْ يَسْتَطيعا فِعْلَ شَيْءٍ لَهُ، فَهُما يَعْرِفانِ دَواءَهُ الوَحيدَ.. لَيْلى.

ولَكِنْ ما حيلَتُهُما إزاءَ صَلَفِ (تَكَبُّرِ) قَوْمِها وأَبيها، ومَرَّةً دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُوهُ فَوَجَدَهُ يُنْشِدُ شِعْرًا يَرْثي حالَهُ، ويَنْشِجُ أَحَرَّ نَشيجٍ (بُكاءٍ بصَوْتٍ عالٍ).

فَخَطَرَ لأَبِيه أَنَّهُ رُبَّما كانَ ابنُهُ يُراوِدُهُ أَمَلٌ في أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ لَيْلى، فَلَوْ

شاهَدَ حَفْلَ زِفَافِها أمامَ عَيْنَيْهِ، وواجَهَ الحَقيقَةَ، فَرُبَّما يَمْتَثِلُ إلى الواقِعِ ويَعودُ إلَيْهِ صَوابُهُ. وذَهَبَ بِهِ مَعَ بَعْضِ شَبابِهِمْ، وَوَقَفَ مُتَخَفِّيًا بِالقُرْبِ مِنْ دِيارِ لَيْلى مُسْتَنِدًا عَلى الشَّبابِ، وهُوَ يَنْظُرُ إلى هَوْدَجِ لَيْلى وقَدْ رَحَلَ بِها زَوْجُها وقَوْمُها، فَلَمّا رآهُمْ يَرْتَحِلونَ، غَلَبَهُ البُكاءُ، فَقالَ لَهُ أبوهُ: «وَيْحَكَ! إنّا جِئْنا بِكَ مُتَخَفِّيًا لِيَتَرَوَّحَ بَعْضُ ما بِكَ بِالنَّظَرِ إلَيْهِمْ ولِتُدْرِكَ الواقِعَ فَتُفيقَ، فإذا فَعَلْتَ ما أَرى عُرِفْتَ، وقَدْ أُهْدِرَ دَمُكَ إنْ مَرَرْتَ بِهِم، فأَمْسِكْ أَوْ فانْصَرِفْ.»

قالَ قَيْسٌ في حُزْنٍ هائِلٍ: «ما لي سَبيلٌ إلى النَّظَرِ إلَيْهِمْ، يَرْتَحِلونَ وأنا ساكِنٌ غَيْرُ جازِعٍ ولا مُبالٍ فانْصَرِفْ بِنا.»

وفي أَثَرِ ذَلِكَ ازْدادَتْ لوثَةُ (جُنون) قَيْسٍ قُوَّةً، فَصارَ أَشْبَهَ بالمجانينِ في فِعالِهِمْ. وكانَتِ النّاسُ تَعْجَبُ لما يَجْري أَمامَهُمْ مِنْ فِعَالِهِ، فيتَساءَلونَ: هَلِ اخْتَلَطَ عَقْلُ قَيْسٍ حَقًّا؟ صَارَ أَجْمَلُ الشَّبابِ وأَشْعَرُهُمْ مَخبولًا؟ ما لَه قَدْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ، وأَرْسَلَ شَعْرَهُ، وغَدا لا يَكادُ يُكَلِّمُ أَحَدًا؟

وكانَتِ النِّسْوَةُ أَكْثَرَ الجَميعِ حُزْنًا عَلَيْهِ، فَقَدْ كانَ شِعْرُهُ في لَيْلى يَذوبُ حَنانًا ورِقَّةً. وقَدْ تَمَلَّكَتِ الغَيْرَةُ بَعْضَهُنّ، فَأَتَيْنَهُ وجَلَسْنَ إلَيْهِ، فَقُلْنَ لَهُ: «ما الَّذي يَدْعوكَ إلى أَنْ تَصْنَعَ بِنَفْسِكَ ما نَرى في هَوَى

لَيْلى، وإنَّما هِيَ امْرَأةٌ مِنَ النِّساءِ؟»

وأَرْدَفَتْ أُخْرى: «هَلْ لَكَ في أَنْ تَصْرِفَ هَواها عَنْكَ إلى إِحْدانا فتُسْعِفَكَ وتَجْزِيَكَ ويَرْجِعَ إِلَيْكَ ما عَزَبَ (غابَ) مِن عَقْلِك وهَزَلَ مِنْ جِسْمِكَ؟»

ورَدَّ عَلَيْهِنَّ وهُوَ يَبْتَلِعُ أَنْفاسَهُ في أَسًى: «لَوْ قَدَرْتُ على صَرْفِ الهَوى عَنْها إِلَيْكُنَّ لَصَرَفْتُهُ عَنْها وعَنْ كُلِّ أَحَدٍ بَعْدَها وعِشْتُ في النَّاسِ سَوِيًّا مُسْتَرِيحًا.»

فَسَأَلَتْهُ إِحْدَاهُنَّ في دَهْشَةٍ: «ولكِنْ ما أَعْجَبَكَ فيها؟»

فَقالَ وهُوَ يَهُزُّ رَأْسَهُ مُتَحَسِّرًا: «كُلُّ شَيْءٍ رَأَيْتُهُ وشاهَدْتُهُ وسَمِعْتُهُ مِنْها أَعْجَبَني.»

فَقُلْنَ لَهُ مُسْتَفْسِراتٍ: «صِفْها لَنا.»

فَوَصَفَها بِشِعْرٍ جَعَلَ النِّساءَ يَشْهَقْنَ مِنْ فَرْطِ جَمالِ وَصْفِها، وما تَبُثُّهُ فيهِ مِنْ ذَوْبِ نَفَسِهِ، وتَباريحِ شَوْقِهِ (تَوَهُّجِه). وذَهَبَتْ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ تَتَغَنّى بِشِعْرِهِ في وَصْفِ لَيْلى وهِيَ تَهْفُو أَنْ تَكونَ مَكانَها.

وأَخَذ ذُهولُ قَيْس وعَدَمُ دِرايَتِهِ بِما حَوْلَهُ يزدادُ، فَقَدْ فُوجِئَ بِهِ قومُه لا يرتَدي إلّا خرْقَةً، ويَلْعَبُ بالتُّرابِ ويَجْمَعُ العِظامَ حَوْلَهُ. ولكِنْ، إذا

ذُكِرَتْ لهُ لَيْلى أَنْشَأَ يُحَدِّثُ عَنْها عاقِلًا ولا يُخْطِئ حَرْفًا.

وخَشِيَ قَوْمُهُ مِنَ الفَضِيحةِ، فأَخَذُوا يَحْبِسُونَهَ ويُقَيِّدُونَهُ فَيَعَضُّ لِسانَه وشَفَتَهُ، فَخَلَّوْا سَبيلَه فراحَ يَهيمُ في الطُّرُقاتِ. وأَخَذَ حالُ جُنُونِهِ يَتطَوَّرُ، فأَطْلَقَ عَلَيْهِ النّاسُ «مَجْنونَ لَيْلى»، وصَاروا كُلَّما شاهدوهُ قالوا: «ها هو ذا المجنونُ!»

وذَهَبَ بَعْضُ شُيوخِ الحيِّ لأبيهِ وقالُوا لَهُ: «حُجَّ بِهِ إلى مَكَّةَ، وادْعُ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لهُ.»

وحَجَّ بِهِ أَبوهُ، فَلَمّا صَارُوا بِمِنًى سَمِعَ صائِحًا في الضِّلّيلِ يَصِيحُ: «يا لَيْلى!» فأَطْلَقَ صَرْخَةً عالِيَةً، ظَنُّوا مَعَها أَنَّ نَفْسَهُ قَدْ تَلِفَتْ، وسَقَطَ مَغْشِيًّا عَليْه. ولَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتّى أَصْبَحَ، ثُمَّ أَفاقَ حائِلَ اللَّوْنِ ذاهِلًا. ولمّا تعَلَّقَ بأَسْتَارِ الكَعْبَةِ لَمْ يَطْلُبْ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُبْرِئَهُ مِنْ حُبِّ لَيْلى، وإِنَّما طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَزِيدَهُ في قَلْبِهِ تَمَكُّنًا.

ولَمْ يَمْضِ عَلَى ذَلِكَ إلّا وَقْتٌ قَليلٌ، حَتّى فَسَدَ عَقْلُهُ وصارَ مَجْنونًا، فكَانَ يَهيمُ في البَرِّيَّةِ مَعَ الوُحوشِ، ولا يَأْكُلُ إلّا ما يَنْبُتُ في البَرِّيَّةِ مِنْ بَقْلٍ، ولا يَشْرَبُ إلّا مَعَ الظِّباءِ إذا وَرِدَتْ مَناهِلَها، وطالَ شَعْرُ رأْسِهِ وَوَجْهِهِ، وأَلِفَتْهُ الظِّباءُ والوحوشُ، وصارَتْ لا تَنْفِرُ مِنْهُ.



وَجَعَلَ يهيمُ حَتَّى يَبْلُغَ حُدودَ الشّامِ، فإذا ثَابَ (رَجَعَ) إِلَيْهِ بَعْضُ عَقْلِهِ سَأَلَ مَنْ يَمُرُّ بِهِ مِنْ أَحْياءِ العَرَبِ عنْ نَجْدٍ.

فيُقالُ لَهُ: «وأَيْنَ أَنْتَ مِنْ نَجْدٍ؟ قَدْ شارَفْتَ الشّامَ (اقْتَرَبْتَ مِنها)! أَنْتَ في مَوْضِعِ كذا.»

فَيَقُولُ: «أَروني وجْهَةَ الطَّرِيقِ.»

فَيَرْحَمونَهُ ويَعْرِضونَ عَلَيْهِ أَنْ يَحْمِلوهُ أَوْ يَكْسوهُ، فَيَأْبى، فَيَدُلّوهُ على طَرِيقِ نَجْدٍ فَيَتَوَجَّهَ نَحْوها.

وصارَتِ النّاسُ تُشاهِدُهُ في نَجْدٍ حينًا وحينًا يَتوهُ، فَيَذْهَبُ إلى نَواحِي الشّامِ فَيَسْأَلُ عَنْ جَبَلِ التَّوْبادِ، الَّذي شَاهَدَ صِباهُ مَعَ لَيْلى، فَيُقالُ لَهُ: «وأَيْنَ أَنْتَ مِنْ جَبلِ التَّوْبادِ؟»

فَيَسْأَلُ: «بِأَبي أَنْتُم مِنْ أَرْضِ بَني عامِرٍ؟»

فَيَسْأَلُونَهُ وقَدِ ازْدادَتْ دَهْشَتُهُمْ: «وأَيْن أَنْتَ مِنْ أَرْضِ بني عامِرٍ. أَنْتَ بِالشّام. عَلَيْكَ بنَجْمِ كَذا فَاقْصِدْ ناحِيَتَهُ.»

فَيَمْضي عَلى وَجْهِهِ نَحْوَ ذَلِكَ النَّجْمِ، حَتّى يَقَعَ بِأَرْضِ اليَمَنِ، فَيرى بِلادًا يُنْكِرُها وقَوْمًا لا يَعْرِفُهُمْ، فَيَسْأَلُ عَنِ التَّوْبادِ، وأَرْضِ بَني عامِرٍ، فَيقولُ لَهُ النّاسُ مُسْتَنْكِرينَ: «وأينَ أَنْتَ مِنْ أرضِ بَني عامِرٍ وَجَبَلِ

التَّوبادِ. عَلَيْكَ بِنَجْمِ كَذا وكَذا.»

فَلا يزَالُ كَذَلِكَ حتّى يَقَعَ عَلى التَّوْبادِ، فإذا رآهُ جَهِشَ بِالبُكاءِ، وناجاهُ بِشِعْرٍ يُقَطِّعُ نياطَ القُلوبِ، يَسْتَعْطِفُهُ أَنْ يَلُمَّ شَمْلَهُ، ويَجْمَعَ بَيْنَهُ وبَيْنَ لَيْلى مَرّةً أُخْرى، ويُذَكِّرُهُ بِما كانَ بَيْنَهُما مِنْ حُبٍّ ووُدٍّ أيّامَ الصِّبا شَهِدَهُ هَذا المكانُ.

ومَتى أَنْشَدَ ذَلِكَ اضْطَجَعَ في المكانِ، يَخْتَلي بِنفْسِهِ مَعَ ذِكْرَياتِهِ، ويَعيشُ في مناجَاتِهِ، حَتّى يَغْلِبَهُ النَّومُ.

ومَرَّتِ السَّنَواتُ، وجُنونُ قَيْس يَزْدادُ. وصارَ الصِّبْيَةُ كُلَّما رَأَوْهُ يتَضاحَكُونَ، فَينهَرُهُمُ الكِبارُ عَنْ ذَلِكَ وهُمْ في أَسًى. وكانَتْ نِساءُ الحَيِّ أَكْثَرَ النّاسِ حُزْنًا عليه، ويَقُلْنَ كُلَّما شَهِدْنَهُ في حَسْرَةٍ وحُزْنٍ: «لَقَدْ جُنَّ أَجْمَلُ الفِتْيانِ وأَخْلَصُهُمْ حُبًّا؛ فأَيْنَ لَيْلى قاسِيَةُ القَلْبِ لِتَعْرِفَ أيَّ جُرْمٍ ارْتَكَبَهُ أَهْلُها في أمْرِهِ؟»

ولَمْ يَعْرِفْ أحدٌ أَيْنَ لَيْلى؛ فَمُنْذُ أَنْ فارَقَتِ الحَيَّ، ولا يَعْرِفُ أَحَدٌ أَيْنَ سَكَنَ بِها زَوْجُها.. حَتَّى حَدَثَ أَنْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بني مُرّةَ إلى نَاحِيَةِ الشَّامِ في طَلَبِ بُغْيَةٍ لَهُ، فأَصَابهُ فَجْأَةً المطرُ، فإذا بِخَيْمَةٍ تُنصَبُ لَهُ، فعَدَلَ إلَيْها وتَنَحْنَحَ، فإذا امْرأةٌ مِنَ القَوْمِ، قَدْ كَلَّمَتْهُ، فَقالَت: «انْزِلْ.»

فَنَزَلَ ضَيْفًا مُكَرَّمًا عَلَيْهِمْ، فَبَعْدَمَا أَراحَ ناقَتَهُ واسْتَراحَ مِنْ أَثَرِ مُعانَاةِ السَّفَرِ، قالَتِ المرأةُ: «سَلوا هَذا الرَّجُلَ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلَ؟»

قَالَ: «مِنْ ناحِيَةِ تِهامَةَ ونَجْدِ.»

قَالَتْ: «ادْخُلْ أَيُّها الرَّجُلُ.»

ودَخَلَ الرَّجُلُ إلى نَاحِيَةٍ مِنَ الخَيْمَةِ، فأَرْخَتْ بَيْنَها وبَيْنَهُ سِتْرًا ثُمَّ قالتْ لَهُ: «يا عَبْدَ اللهِ، أيَّ بلادِ نَجْدٍ وَطِئْتَ؟»

قالَ: «كُلَّها.»

وسأَلتْ في صَوْتٍ وَضَحَ فِيهِ الشَّغَفُ الشَّديدُ: «فيمَنْ نَزَلْتَ هُناكَ؟»

أَجَاب: «بَني عامرٍ.»

وسَمِعَها تَتَنَفَّسُ الصُّعَداءَ، ثُمَّ سَأَلَتْ: «فَبِأَيِّ بَني عامرٍ نَزَلْتَ؟»

أجابَ الرَّجُلُ وهُو في دَهْشَةٍ مِنْ سُؤالِها: «بِبَني الحَريشِ.»

اسْتعْبَرَتْ (سالَ دَمْعُها) ثُمَّ سَأَلَتْ: «فَهَلْ سَمِعْتَ بِذِكْرِ فَتًى مِنْهُمْ يُقالُ لَهُ قَيْسُ بنُ المُلَوَّحِ ويُلَقَّبُ بالمجْنونِ؟»

قالَ: «بَلَى واللهِ، وعلى أَبيهِ نَزلْتُ، وأَتَيْتُهُ فَنظَرْتُ إِلَيْهِ يَهيمُ في تِلْكَ الفَيافي، ويَكونُ مَعَ الوَحْشِ لا يَعْقِلُ ولا يَفْهَمُ إلّا أَنْ تُذْكَرَ لَهُ امْرأَةٌ يُقالُ لَها لَيْلى فيَبْكِي ويُنْشِدَ أَشْعارًا قالَها فيها.»

ورَفَعَتِ المرأةُ السِّتْرَ بيْنَها وبيْنَهُ، فإذا فَلْقَةُ قَمَرٍ لَمْ تَرَ عَيْنَاهُ مِثْلَها، وانْفَجَرَتْ تَجْهَشُ ببُكَاءٍ شَديدٍ، حَتَّى ظَنَّ الرَّجُلُ أَنَّ قَلْبَها قَدِ انْخَلَعَ، فَقالَ يُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِها: «أَيَّتُها المرأةُ، اتَّقي اللهَ، فَما قُلْتُ بَأْسًا.»

ولَكِنَّها مَكَثَتْ طَوِيلًا عَلى تِلْكَ الحالِ بَيْنَ البُكَاءِ والنَّحِيبِ، فَسَأَلَها الرَّجُلُ في حَيْرَةٍ وذُهولٍ: «مَنْ أَنْتِ يا أَمَةَ اللهِ؟ وما قِصَّتُكِ؟»

قالَتْ: «أَنا - واللهِ - لَيْلى صَاحِبَتُهُ المشْئومَةُ عَلَيْهِ، غَيْرُ المُؤْنِسَةِ لَهُ.»

ونَظَرَ الرَّجُلُ إليْها وبَكَى، فلَمْ يَرَ امْرأَةً في مِثْلِ حُزْنِها ووَجْدِها على قَيْسٍ!

* * *

سُبْحانَ مَنْ يَجْمَعُ الشَّمْلَ
بَعْدَ تَفَرُّق

يُحْكَى أَنَّ رجُلًا مِنْ خِيارِ النّاسِ كانَ كَثيرَ المالِ ولَهُ وَلَدٌ صالِحٌ مُبارِكٌ، فحَضَرَتِ الرَّجُلَ الوَفاةُ، فقَعَدَ ولَدُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وقالَ: «يا أَبي، أَوْصِني.»

قالَ: «يا بُنَيَّ، لا تَحْلِفْ بِاللهِ بارًّا ولا فاجِرًا.»

وانْتظَرَ الابْنُ أَنْ يَقولَ أَبوهُ شَيْئًا آخَرَ، ولَكِنّ أَباهُ أشارَ بِيَدِهِ أَنَّ هَذهِ كُلُّ وَصِيَّتِهِ. وماتَ الرَّجُلُ، فلَمّا تَسامَعَ بَعْضُ المُقرَّبينَ بِهَذِهِ الوَصيَّةِ، ظَلّوا يُرَدِّدُونَها حَتّى وَصَلَتْ إلى فُسّاقِ المدينَةِ، فطَمِعَ كُلٌّ مِنْهُمْ في مالِ الابْنِ، وَحَاولوا اسْتِغْلالَ الوَصِيَّةِ لِصالِحِهِمْ، فَجَعَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَأْتيهِ وَيَقولُ: «لي عِنْدَ والِدِكَ كَذا وكَذا. وأَنْتَ تَعْلَمُ بِذَلِكَ فأَعْطِني ما في ذِمَّتِهِ وإلّا فاحْلِفْ.»

وما إنْ يَهُمَّ الابنُ بأَنْ يَحْتَجَّ ويُنْكِرَ، إذا بِهِ يُضْطَرُّ لِلرُّضوخِ لِوَصِيَّةِ

والِدِهِ، فَيُعطيهِ جَميعَ ما طَلَبَهُ.

فما زالوا بِهِ حَتّى فَنِيَ مالُهُ، واشْتَدَّ إقْلالُهُ. وكانَتْ لِلْوَلَدِ زَوْجَةٌ صالِحَةٌ مُبارَكَةٌ، ولَهُ مِنْها ولَدانِ صَغيرانِ، فَقالَ لَها: «إنَّ النّاسَ قَدْ أَكْثَروا طَلَبي، وما دامَ مَعي ما أَدْفَعُ بِهِ عَنْ نَفْسي بَذَلْتُهُ، والآنَ لَمْ يَبْقَ لَنا شَيْءٌ، فَإِنْ طالَبَني مُطالِبٌ امْتُحِنْتُ أنا وأنْتِ، فالأَوْلَى أَنْ نَفوزَ بأَنْفُسِنا ونَذْهَبَ إلى مَوْضِعٍ لا يَعْرِفُنا فيهِ أَحَدٌ، ونَتَعَيَّشَ بَيْنَ أَظْهُرِ النّاسِ.»

قالَتْ زوجَتُهُ وقَدِ اسْتَحْسَنَتِ الفِكْرَةَ: «لَكَ ما تَشاءُ.»

وركِبَ بها وبِوَلَدَيْهِ البَحْرَ، وهُوَ لا يَعْرِفُ أيْنَ يَتَوَجَّهُ، واللهُ يَحْكُمُ ولا مُعَقِّبَ لحُكْمِهِ. وبَيْنَما كانَتِ السَّفينَةُ تَمْخُرُ (تَجْرِي وتَشُقُّ) بِهِمْ عُبابَ البَحْرِ، اصْطَدَمَتْ بِصَخْرَةٍ مُخْتَفِيَةٍ في عُمْقِ الماءِ، فَتَهَشَّمَ مُقَدِّمُها، وتَفَرَّقَتْ أَلْواحُها بَعْضُها عَنْ بَعْضٍ، فَصاحَ صاحِبُها في رُكّابِها: «فَلْيَلُذْ كُلٌّ مِنْكُمْ بِلَوْحٍ مِنْ أَلواحِ السَّفينةِ، لَعَلَّهُ يَجِدُ فيهِ نَجاتَهُ.»

وخَرَجَ الرَّجُلُ عَلى لَوْحٍ، وخَرَجَتِ المرأَةُ على لَوْحٍ آخَرَ، واسْتَطاعَ كُلٌّ مِنَ الوَلَدَيْنِ أَنْ يَخْرُجَ عَلَى لَوْحٍ، غَيْرَ أَنَّ الأَمْواجَ كانَتْ شَديدَةً، فَقَذَفَتْ بِكُلٍّ مِنْهُمْ في اتِّجاهٍ، وتَفَرَّقوا؛ فَوَصَلَتِ المرأةُ إلى بَلَدٍ، ووَصَلَ أَحَدُ الولَدَيْنِ إلى بَلَدٍ آخَرَ، والْتَقَطَ أَهْلُ سَفينَةٍ في البَحْرِ الوَلَدَ الآخَرَ.

وأَمّا الرجُلُ، فَقَذَفَتْهُ الأمْواجُ إِلى جَزيرَةٍ مُنْقَطِعَةٍ.

ولَمّا خَرَجَ إِلَيْها تَوَضَّأَ مِنَ البَحْرِ وأَذَّنَ وأَقامَ الصَّلاةَ.

ولَمّا أقامَ الصَّلاةَ، خَرجَ من البَحْرِ أَشْخاصٌ بألوانٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَصَلَّوْا مَعَهُ، ولما فَرَغَ قامَ إلى شَجَرةٍ في الجزيرَةِ فأكَلَ مِنْ ثِمارِها، فَزالَ عَنْهُ جوعُهُ، ثُمَّ وَجَدَ عَيْنَ ماءٍ فَشَرِبَ مِنْها، وحَمِدَ اللهَ عزَّ وَجَلَّ.

واسْتَمَرَّ يُصَلّي ثلاثَةَ أيّامٍ، ومَع كُلِّ مَرَّةٍ يُصَلّي، يَخْرُجُ مِنَ البَحْرِ أَقْوامٌ يُصلّونَ بِصَلاتِهِ، حَتّى سَمِعَ يَوْمًا مُناديًا يُناديهِ:

«يا أَيُّها الرَّجُلُ الصّالِحُ البارُّ بِأَبيهِ، المجِلُّ قَدْرَ رَبِّهِ، لا تحْزَنْ إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مُخْلِفٌ علَيْكَ ما خَرجَ مِنْ يَدِكَ، فَإِنَّ في هَذِهِ الجزيرَةِ كُنوزًا وأَمْوالًا يُريدُ اللهُ أَنْ تَكونَ لَها وارِثًا. وَهيَ في مَوْضِعِ كَذا وكَذا مِنْ هَذِهِ الجزيرَةِ، فاكْشِفْ عَنْها، وإنّا لَنَسوقُ لَكَ السُّفُنَ، فَأَحْسِنْ إلى النّاسِ وادْعُهُمْ إلَيْكَ، فَإِنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يُميلُ قُلوبَهُمْ إِلَيْكَ.»

وقَصَدَ الرَّجُلُ تِلْكَ المَواضعَ التي وُصِفَتْ لَهُ، وكَشَفَ اللهُ لَهُ عَنْ تِلْكَ الكُنوزِ، وصارَ أَهْلُ السُّفُنِ يَتَرَدَّدونَ عَلَيْهِ فيُحْسِنُ إِلَيْهِم إِحْسانًا عَظيمًا، ويَقولُ لَهُمْ: «لَعلَّكُمْ تُدِلّونَ عَلَيَّ النّاسَ، فإنّي أُعْطيهِمْ كَذا وكَذا وأَجْعَلُ لَهُمْ كَذا وكَذا.»



وصارَ النّاسُ يَأْتونَهُ مِنَ الأَقْطارِ والأماكِنِ، ولَمْ يَمْضِ عَلى ذَلِكَ عَشْرُ سَنَواتٍ إلّا والجزيرَةُ قَدْ عَمِرَتْ، والرَّجُلُ قَدْ صارَ مَلِكَها لا يَأْوي إلَيْهِ أَحَدٌ إلّا أَحْسَنَ إلَيْهِ، وشاعَ ذِكْرُهُ في الأَرْضِ بِالطّولِ والعَرْضِ.

ولَكِنَّهُ عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ صارَ مَلِكًا عَريضَ الثَّراءِ، مَبْسوطَ الجاهِ والسُّلْطانِ، فإنَّ الحُزْنَ الشَّديدَ لِفِراقِ زَوْجَتِهِ وَوَلَدَيْهِ يَجْثِمُ عَلى صَدْرِهِ، ويَحْرِقُ كَبِدَهُ، ولا يَكادُ يُفارِقُهُ ساعةً واحِدَةً.

وكانَ وَلَدُهُ الأَكْبَرُ قَدْ وَقَعَ عِنْدَ رَجُلٍ علَّمَهُ وأَدَّبَهُ، والآخَرُ قَدْ وَقَعَ عِنْدَ رَجُلٍ رَبّاهُ وأَحْسَنَ تَربيَتَهُ، وعَلَّمَهُ طُرُقَ التِّجارَةِ. أَمّا المرأةُ فقَدْ وَقَعَتْ عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ التُّجّارِ ائْتَمَنَها عَلى مالِهِ وعاهَدَها عَلى ألّا يَخونَها، وأَنْ يُعينَها على طاعَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ. وكانَ يُسافِرُ بِها في السَّفينَةِ إلى البِلادِ، ويَصْطَحِبُها في جَميعِ رِحْلاتِهِ.

سَمِعَ الوِلَدُ الكَبيرُ بِصيتِ ذَلِكَ المِلِكِ، فَقَصَدَهُ وهُوَ لا يَعْلَمُ مَنْ هُوَ. وأُعجِبَ المَلِكُ بِعِلْمِ الوَلَدِ وأَدَبِهِ، وراقَ في عَيْنَيْهِ فِكْرُهُ وثَقافَتُهُ، ودِرايَتُهُ بأُصولِ التِّجارَةِ والمالِ، وهُدوءُ طَبْعِهِ وأَمانَتُهُ، فَهُو لا يُذيعُ سِرًّا، ولا يُفْشي قَوْلًا، ولِذَلِكَ جَعَلَهُ كاتِبًا لَهُ.

وسَمِعَ الوَلَدُ الآخَرُ بذَلِكَ المَلِكِ الصّالِحِ، فقَصَدَهُ وسارَ إلَيْهِ وهُوَ لا

يَعْلَمُ مَنْ هُوَ أَيْضًا. وأَعْجَبَ المَلِكَ حُسْنُ تَصَرُّفِهِ، وذَكاؤُهُ ولَباقَتُهُ، فأقامَهُ وَكيلًا لَهُ للنَّظَرِ في أمورِهِ. وَبَقِيَ الوَلَدانِ مُدَّةً مِنَ الدَّهْرِ في خِدْمَةِ المَلِكِ وكُلٌّ واحِدٍ مِنْهُما لا يَعْلَمُ ما يُكِنُّ لِصاحِبِهِ مِنَ الإعْجابِ والمَوَدَّةِ، والإجْلالِ والإكْبارِ. ونَشَأَتْ بَيْنَهُما صَداقَةٌ مَتينَةٌ، وتَوَثَّقَتِ الأُلْفَةُ بَيْنَ نَفْسَيْهِما، وإِنْ كانَ لا يَعْلَمُ كُلٌّ مِنْهُما عَنْ ماضي صاحِبِهِ شَيْئًا.

ولمّا وَصَلَ خَبَرُ ذَلِكَ الملِكِ، وبِرُّهُ لِلنّاسِ وإحْسانُهُ إِلَيْهِمْ، إلى الرَّجُلِ الَّذي عِنْدَهُ المرأةُ، أَخَذَ بَعْضًا مِنَ الثِّيابِ الفاخِرَةِ، وشَيْئًا مما يُسْتَطْرَفُ مِنْ تُحَفِ البِلادِ، وأتى بِسَفينَةٍ والمرْأةُ مَعَهُ، حَتّى وَصَلَ إلى شاطِئِ الجزيرَةِ. ونَزَلَ إلى الملِكِ وقَدَّمَ لَهُ هَدِيَّتَهُ، فَنَظَرَها الملكُ وسُرَّ بِها كثيرًا، وأَمَرَ لَهُ بِجائِزَةٍ سَنِيَّةٍ (قَيِّمةٍ). وكانَ في الهَدِيَّةِ عَقاقيرُ، أرادَ الملِكُ مِنَ التّاجِرِ أَنْ يُعَرِّفَها بأسْمائِها ومَنافِعِها، وطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُقيمَ عِنْدَهُ اللَّيْلَةَ.

قالَ التّاجِرُ مُعْتَذِرًا: «إنّ لي في السَّفينَةِ وَديعَةً عاهَدْتُها أَلّا أَكِلَ أَمْرَها إلى غَيْري، وهيَ امْرَأةٌ مُبارَكَةٌ صالِحةٌ تَيَمَّنْتُ بِدُعائِها وآرائِها.»

قالَ المَلِكُ: «سَأَبْعَثُ إلَيْها أُمَناءَ يَبيتونَ عِنْدَها، ويَسْهَرونَ عَلى راحَتِها، ويَحْرُسونَ ما لَدَيْها.» وأجابَهُ الرَّجُلُ إلى ذَلِكَ، وبَقِيَ عِنْدَه.

ونادَى الملِكُ عَلى كاتِبِهِ ووَكيلِهِ، وأَمَرَهُما بالتَّوَجُّهِ إلى المرْأَةِ الَّتي

بِالسَّفينَةِ، وقالَ لَهُما: «اذْهَبا فاحْرُسا سَفينَةَ هَذا الرَّجُلِ، واسْهَرا عَلى رِعايَةِ مَنْ فيها.»

سارا إلى السَّفينَة وصَعِدا إليها، وقَعَدَ هَذا عَلى مُؤَخَّرِها، وهَذا عَلى مُقَدَّمِها، وذَكَرا اللهَ عَزَّ وجَلَّ بُرْهَةً مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ قالَ أَحَدُهُما للآخَرِ:

«يا فُلانُ، إنَّ الملِكَ قَدْ أَمَرَنا بالحِراسَةِ ونَخْشَى أَنْ يَغْلِبَنا النَّوْمُ فَتَعالَ نَتحادَثُ لِنَطْرُدَ النَّوْمَ.»

وجَعَلا يَتَحَدَّثانِ في أَخْبارِ الزَّمانِ وما صادفاهُ مِن ابْتِلاءٍ وامْتِحانٍ، فَقالَ أَحَدُهُما: «أَمّا أَنا فَمِنِ امْتِحاني أَنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْني وبَيْنَ أبي وأُمّي وأَخٍ لي كانَ اسْمُهُ كَاسْمِكَ، والسَّبَبُ في ذَلِكَ أَنَّ والِدَنا رَكِبَ البَحْرَ مِنْ بَلَدِ كَذا وكَذا، فَهاجَتْ عَلَيْنا الرّياحُ، واخْتَلَفَتْ فَحَطَّمَتِ السَّفينَةَ وفَرَّقَ اللهُ شَمْلَنا.»

ولَمّا سَمِعَ الآخَرُ بِذَلِكَ سَأَلَهُ في لَهْفَةٍ: «وما هُوَ اسْمُ والِدَتِك يا أَخي؟»

قالَ: «فُلانَةُ.»

سَأَلَهُ وهُوَ يَلْهَثُ: «وما اسْمُ والِدِكَ؟»

قالَ: «فُلانٌ.»

وهَتَفَ الأخُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ وهُوَ لا يُصَدِّقُ ما حَدَثَ: «يا إلهي! إنَّكَ.. إنَّكَ أَخي!»

فَتَرامى الأَخُ على أخيهِ، وقالَ لَهُ وهُوَ يَحْتَضِنُهُ: «أَخي.. أَخي.. أَنْتَ واللهِ حَقًّا! يا لها مِنْ مُصادَفَةٍ!» وجَعَلَ كُلُّ واحِدٍ منْهُما يُحَدِّثُ أَخاهُ بِما جَرَى عَلَيْهِ في صِغَرِهِ.



وكانَتِ الأُمُّ في ذاكَ الوَقْتِ تَسْمَعُ حَديثَهُما، فشَهِقَتْ وكادَ يُغْشى عَلَيْها مِنْ فَرْطِ الفَرْحَةِ. ولكِنَّها ما إنْ هَمَّتْ أنْ تجْرِي إلَيْهِما وتُخْبِرَهُما، حَتّى خَطَرَ لَها خاطِرٌ، فكَتَمَتْ أَمْرَها وصَبَرَتْ على نَفْسِها، فَلمّا طَلَعَ الفَجْرُ، قالَ أَحَدُ الابْنَيْنِ لأَخيهِ: «سِر، يا أخي، نَتَحَدَّثُ في مَنْزِلي.»

أَجابَهُ: «هَيّا بِنا.»

ولَمّا غادَرا السَّفينَةَ، أَتى الرَّجُلُ، فوَجَدَ المرْأَةَ وقَدْ ظَهَرَ عَلَيْها كَرْبٌ شَديدٌ، فَسأَلَها في لَهْفَةٍ: «ما دَهاكِ؟ ما أَصابَكِ؟»

قالَتْ: «بَعَثْتَ إليَّ اللَّيْلَةَ مَنْ أَرادَني بِالسَّوْءِ، وكُنْتُ مِنْهُما في كَرْبٍ عَظيمٍ.»

غَضِبَ التّاجِرُ، وتَوجَّهَ إلى الملِكِ وأَخْبَرَهُ بِما فَعَلَ الأَمينانِ، فَلَمْ يُصَدِّقِ الملِكُ أَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ مِنْهُما، وهُوَ الَّذي يُحِبُّهُما لِما تَحقَّقَ فيهِما مِنَ الأَمانَةِ والاسْتِقامَة.

وأرْسَلَ إلَيْهِما لِيَحْضُرا أَمامَهُ بِسُرْعَةٍ، ثُمَّ أَمَرَ بإِحْضارِ المرْأةِ حَتّى تَذْكُرَ أَمامَ الجَميع ما كانَ مِنْهُما مُشافَهَةً.

وجيءَ بِها وأُحْضِرَتْ، فَسَأَلَها الملِكُ: «أَيَّتُها المرْأةُ، ماذا رَأَيْتِ مِنْ هَذَيْنِ الأَمينَيْنِ؟»

قالَتْ: «أَيُّها الملِكُ أَسْأَلُكَ بِاللهِ العَظيمِ، رَبِّ العَرْشِ الكَريمِ، أَنْ تَأْمُرَهُما بِأَنْ يُعيدا كَلامَهُما الَّذي تَكَلَّما بِهِ البارِحَةَ.»

قالَ لَهُما الملِكُ: «قولا ما قُلْتُماهُ ولا تَكْتُما شَيْئًا.»

وأَعادا كَلامَهُما، فَما إنْ سَمِعَهُما الملِكُ، حَتّى انْتَفَضَ قائِمًا مِنْ فَوْقِ مَقْعَدِهِ، وصاحَ صَيْحَةً عَظيمَةً، وتَرامى عَلَيْهِما قائلًا وهُوَ يُعانِقُهُما باكِيًا: «واللهِ إنَّكُما وَلَداي حَقًّا.. لَقَدْ كُنْتُ أَشْعُرُ بِحَنينٍ خَفِيٍّ تُجاهَكُما، ولا أَدْري سَبَبَهُ.»

وكَشَفَتِ المرْأَةُ عَنْ وَجْهِها قائلَةً: «وأَنا واللهِ أُمُّهُما!»

ونَظَرَ الجَميعُ، بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ غَيْرَ مُصَدِّقينَ، ثُمَّ راحوا في عِناقٍ طَويلٍ.. في حينَ كانَ التّاجِرُ والحُرّاسُ ورِجالُ القَصْرِ جَميعًا يَنْظُرونَ، وصاحَ أَحَدُهُمْ في ذُهولٍ:

«سُبْحانَ مَنْ يَجْمَعُ الشَّمْلَ بَعْدَ تَفَرُّقٍ!»

* * *

وَفاءٌ نادِر

عِنْدَما أَوْشَكَ الشِّتاءُ أَنْ يَمْضِيَ، اسْتَقَرَّ عَزْمُ حُجْرِ بنِ عَمْرٍو الفارِسِ الشَّهيرِ عَلى السَّيْرِ إلى غَزْوِ البَحْرَيْنِ مَعَ أَتْباعِهِ مِنْ شُيوخِ القَبائِلِ، الَّذينَ اجْتَمَعوا لَهُ مِنْ نَجْدٍ وأَطْرافِ اليَمامَةِ. ولَمّا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ لِيُخْبِرَهُمْ بِالغَزْوِ، أَسْرَعوا جَميعًا لِتَلْبِيَةِ النِّداء لِيَسيروا جَميعًا وَراءَهُ.

كانوا جَميعًا يَثِقونَ في أَنَّهُمْ سَيَفوزونَ بِالنَّصْر دائِمًا مَعَهُ، فَلَمْ يَكُنْ حُجْرُ بْنُ عَمْرٍو بِالرَّجُلِ الَّذي يَعْرِفُ التَّرَدُّدَ، ولا يَهابُ أَحَدًا، وكانَ وَجْهُهُ يَنُمُّ على أَنَّهُ بَيْنَ الرِّجالِ مِثْلُ نَمِرِ الغابَةِ، قاسِيًا صُلْبًا يَعْرِفُ الغَرَضَ الَّذي يَرْمي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَسيرُ نَحْوَهُ في سُرْعَةٍ وخِفَّةٍ واحْتِراسٍ حَتّى إذا أَتَتِ اللَّحْظَةُ الحاسِمَةُ وَثَبَ عَلى فَريسَتِهِ فصَرَعَها، ثُمّ أَخَذَ يَقْضِمُ لَحْمَ أَكْتافِها في شَرَهٍ.

وكانَ النّاظِرُ إِلَيْهِ يَحْسَبُ أَنَّهُ يَتَحَفَّزُ دائِمًا لِلْوُثوبِ، فَقَدْ كانَتْ شَفَتاهُ تَنْفَرِجانِ عَنْ ثَناياهُ مِثلَ وَحْشٍ يُكَشِّرُ عَنْ أَنْيابِهِ، وكان عُبُوسُهُ لا يُفارِقُ

جَبينَهُ، ويَخُطُّ فيما بَيْنَ حاجِبَيْهِ أُخْدودًا عَميقًا مُظْلِمًا.

ولَمْ يَكُنْ أَتْباعُهُ مِنْ شُيوخِ القَبائِلِ هَؤُلاءِ سِوى صورَةٍ مُكَرَّرَةٍ مِنْ حُجْر، وإنْ كانوا قَدْ أَذْعَنوا لَهُ، واتَّخَذوهُ زَعِيمًا لَهُمْ. كانوا جَميعًا مِنَ المُغامِرينَ الَّذينَ لا يَعْرِفونَ التَّرَدُّدَ ولا يَهابونَ المَوْتَ. وكانَتْ عادَةُ حُجْر إذا عَزَمَ عَلى غَزْوَةٍ بيَّتَ أَمْرَها مَعَ أَصْحابِهِ، فَأَعَدّوا لَها الرَّواحِلَ والخُيولَ في حَذَرٍ وكِتْمانٍ، حَتّى إذا تَمَّ لَهُمْ ما أَرادوا لَمْ يُطيقوا صَبْرًا عَنِ السَّيْرِ. فكانَ حُجْر يُسارِعُ إلى الرَّحيلِ بِهِمْ في أَوَّلِ اللَّيْلِ وفي وَسَطِهِ، والظَّلامُ ضارِبٌ أَطْنابَهُ (مُنْتَشِرٌ) في أَطْرافِ الفَلاةِ، حَتّى يَأْخُذوا عَدُوَّهُمْ عَلى غِرَّةٍ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَهُ الأَنْباءُ عَنِ الخَطَرِ الزّاحِفِ إلَيْهِ.

بَيْدَ أَنَّ حُجْرًا كانَ في هَذِهِ المَرَّةِ عَلى غَيْرِ ما اعْتادَ مِنْ قَبْلُ في غَزَواتِهِ، فإنَّهُ بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ عُدَّتَهُ وأَتَمَّ تَدْبيرَ خُطَّتِهِ، فوجِئوا جَميعًا بِهِ يَتَرَدَّدُ ويُطاوِلُ ويُؤَجِّلُ؛ فَتَهامَسوا جَميعًا فيما بَيْنَهُمْ، فَقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:

«إنَّهُ قَدْ تَغيَّرَ ودَبَّ إلى قَلْبِه الخَوْفُ مِنَ الحُروبِ.»

ولَمْ يَجِدْ بَعْضُ أَصْحابِهِ بُدًّا مِنَ الإفْضاءِ إلَيْهِ بِما يَتَهامَسُ بِه الآخَرونَ عَنْهُ، فَغَضِبَ وثارَ وهَدَّدَ، وهالَهُ أَنْ يُتَّهَمَ بالخَوْفِ مِنَ الحَرْبِ وهُوَ حُجْر بْنُ عَمْرو!

ودَفَعَهُ الغَضَبُ إلى أَنْ يَعْزِمَ علَى السَّيْرِ إلى الغَزْوَةِ مِنْ ساعَتِهِ. وكانَ اللَّيْلُ قَدِ انْقَضى وبَدَتْ أَضْواءُ الفَجْرِ، ودَبَّتِ الحَياةُ في الفَضاءِ السّاكِنِ الفسيحِ عِنْدَما بَدَأ السَّيْرُ.

خَرَجَ حُجْر مِنْ خَيْمَتِهِ ونادى في أَصْحابِه، إِنَّهُمْ سائِرونَ مِنْ ساعَتِهِمْ إلى الشَّرْقِ نَحْوَ البَحْرَيْنِ. ولَكِنَّهُ كانَ مَعَ ذَلِكَ ثائِرَ الشَّجَنِ يَعيشُ صِراعًا بِداخِلِهِ، تَدْعوهُ الحَمِيَّةُ والعِزَّةُ إلى الغَزْو، في حينِ يُنازِعُهُ قَلْبُهُ إلى البَقاءِ؛ فَمُنْذُ أَنْ وَقَعَتْ عَيْناهُ على هِنْدٍ عَرَفَ قَلْبُهُ الحُبَّ، وأَسْرَعَ إلى أَهْلِها يطْلُبُها لِلزَّواجِ، وبَذَلَ لَها كُلَّ ما يَمْلِكُ مِنْ مالٍ ونوقٍ وخَدَمٍ. وما إنْ تَزَوَّجَ بِها حَتّى عَرَفَ الحَنينَ والرِّقَّةَ، وصارَ الحُبُّ يَمْلأُ قَلْبَهُ، ومِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الحُبِّ كانَ يُطاوِلُ أَصْحابَهُ ويُؤَجِّلُ مَوْعِدَ الغَزْوَةِ الأَخيرَةِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ.

وكانَتْ هنْدٌ الجَميلَةُ واقِفَةً عِنْدَ بابِ الخِباءِ مِثْلَ الأُقْحُوانةِ الرَّطْبَةِ الَّتي تَفَتَّحَتْ في الصَّباحِ، وخُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ الهَواءَ قَدِ امْتَلأَ مِنْها عِطْرًا ونَوْرًا. وأَلْقَتْ بِنَفْسِها بَيْنَ ذِراعَيْهِ وهِيَ باكِيَةٌ، وأَخَذَتْ تَمْزُجُ اللَّومَ بالدُّعاءِ، وتَسْتَعْجِلُ عَوْدَةَ اللِّقاءِ قَبْلَ أَنْ يَكونَ الفِراق، في حين وقَفَ أَمامَها وقَدْ توزَّعَ قَلْبُهُ بَيْنَ لَوْعَةِ الإِحْساسِ بالفِراقِ، وصُنوفِ السَّعادَةِ مِنْ جَرّاءِ إِفْصاحِها بِحُبِّها لَهُ. وكانَ صَوْتُها يَقَعُ في أَعْماقِ قَلْبِهِ غِناءً

شَجِيًّا، ونَظَراتُ عَيْنَيْها تَنْفُذُ إلى نَفْسِهِ سِحْرًا يَكادُ يُقْعِدُهُ عَنِ الغَزْوَةِ مَرَّةً أُخْرى.

وسَرْعانَ ما اسْتَجْمَعَ عَزيمَتَهُ، ونَزَعَ يَدَيْها مِنْ حَوْلِ عُنُقِهِ في رِفْقٍ، بَعْدَ أَنْ ضَمَّها لِصَدْرِهِ وأَوْدَعها حُبَّهُ الغامِرَ الشَّديدَ، وأَسْرَعَ إلى فَرَسِهِ ووَثَبَ عَلَيْها.

وقَبْلَ أَنْ يَلْوِيَ عِنانَ فَرَسِهِ، الْتَفَتَ إلى هِنْد وقالَ: «يا هِنْدُ!»

ولَمْ يُكْمِلْ كَلامَهُ، وانْدَفَعَ يَعْدو نَحْوَ أَصْحابِهِ في عُنْفٍ، كَأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يُبْعِدَ عَنْ نَفْسِهِ التَّرَدُّدَ الَّذي كادَ يَلْوي عِنانَ فَرَسِهِ نَحْوَ الخِباءِ الحَبيبِ.

وكانَتِ الشَّمْسُ تُرْسِلُ أَوَّلَ أَشِعَّتِها مِنْ وَراءِ الأُفُقِ، عِنْدَما كانَ حُجْر مُتَقَدِّمًا جَيْشَهُ في صَمْتٍ مُطْبِقٍ، يُحَدِّثُ نَفْسَهُ عَنْ هِنْد وفِراقِها، ويَسْتَعيدُ ذِكْرَياتِهِ مِرارًا مُنْذُ وُقوعِ عَيْنَيْه عَلَيْها وحَتّى وَداعِها، فَلَمْ يَشْعُرْ بعَشَراتِ الأَمْيالِ الَّتي قَطَعَها، وهُوَ صامِتٌ تَتَلاحَقُ أَنْفاسُهُ، ويَخْتَلِجُ قَلْبُهُ كُلَّما شَعَرَ بِلَوْعَةِ الفِراقِ. غَيْرَ أَنَّهُ اسْتَطاعَ أَخيرًا أَنْ يَهْرُبَ مِنْ طَيْفِ هِنْد وخَيالِها، بَعْدَما أَقْنَعَ نَفْسَهُ بأَنَّهُ لَنْ يَقْضِيَ في غَزْوَتِهِ إلّا أَيّامًا، يَعودُ بَعْدَها إلَيْها، فَيَجِدُها تَنْتَظِرُهُ وتَفْتَحُ لَهُ ذِراعَيْها وتُهَنِّئُهُ بِالانْتِصارِ.

أَقْبَلَ عَلى أَصْحابِهِ يَسْمَعُ مِنْهُمْ ويُحَدِّثُهُمْ، ويَنْظُرُ في الأُمورِ، ويُلْقي أَوامِرَهُ لِما تَعَوَّدَ الجميعُ مِنْ حَزْمِهِ وصَرامَتِهِ، وجَعَلَ كُلَّما عاوَدَتْهُ صورَةُ هِنْد بَعْدَ ذَلِكَ زادَتْ عَزيمَتُهُ مَضاءً وقُوَّةً، حَتّى انْتَهى بِهِ السَّيْرُ الطَّويلُ إلى البَحْرَيْنِ.

وَباتَ لَيْلَتَهُ قَبْلَ الزَّحْفِ الأَخيرِ يَتَدَبَّرُ الأَمْرَ مَعَ أَصْحابِهِ؛ لِيَهْبِطوا على عَدُوِّهِمْ مِنْ كُلِّ ناحِيَةٍ، ويأْخُذوا عَلَيْهِ كُلَّ السُّبُلِ، فَلا تَطْلُعُ الشَّمْسُ حَتّى يَكونَ شاطِئُ البَحْرِ كُلُّهُ مَوْطِئًا لِخَيْلِهِمْ، وحَتّى تكونَ خَزائِنُ اللُّؤْلُؤِ الَّتي تُشْتَهرُ بِها البَحْرَيْن كُلُّها في حَوْزَتِهِمْ. وحَدَّثَتْه نَفْسُهُ أَنْ يَخْتارَ مِنْها ما شاءَ هَدِيَّةً لِهِنْدٍ الحبيبَةِ.

وفيما كانَ الأمراءُ يُعَبِّئونَ الجيْشَ، ويُقَسِّمون كَتائِبَهُ، ويَشُدّونَ أَلْوِيَتَهُمْ في أَطْرافِ الرِّماحِ، ويَنْتَظِرونَ عَوْدَةَ طَلائِعِهِمْ لِتُخْبِرَهُمْ عَنْ قَدْرِ اسْتِعْدادِ رِجالِ البَحرِيْن لِصَدِّ غَزْوِهِمْ، إذا بِرَجُلٍ مِنْ رِجالِ اسْتِطَلاعِهِم يُسْرِعُ إِلَيْهِمْ في الظَّلامِ، وقَدْ شَقَّ قَميصَهُ، ويَقولُ وهُوَ يَلْهَثُ: «أَدْرِكوا مَنازِلَكُمْ فَقَدْ أَحاطَ بِها العَدُوُّ!»

ثُمَّ أَخَذَ يُحَدِّثُهُمْ أَنَّ العَدُوَّ الَّذي تَسَلَّلَ إلى الدِّيارِ في غَيْبَتِهِمْ سَلَبَ الأَمْوالَ وسَفَكَ الدِّماءَ، فَسَأَلَهُ حُجْر في لَهْفَةٍ: «وماذا عَنْ زَوْجَتي

هِنْد؟»

وفوجِئ بِالرَّجُلِ يَقولُ مِنْ بَيْنِ أَنْفاسِهِ اللاهِثَةِ: «لَقَدْ... لَقَدْ أَسَروها، يا سَيِّدي!»

* * *

وأَخَذَ الرَّجُلُ يُحَدِّثُهُمْ عَنِ العدُوِّ وكَيْفَ عَرَفَ أَنْباءَ غَيْبَتِهِمْ، فاقْتَنَصَ هَذِهِ الفُرْصَةَ الَّتي سَنَحَتْ، وهَجَمَ عَلى الدِّيارِ، واسْتَباحَها.

وَكانَ أولُ هَمّ قائِدِهِمْ أَنْ يُحيطَ بِخِباءِ هنْد فَجَعَلَها أَثْمَنَ غَنائِمِهِ، وأَرْدَفَها وَراءَهُ عَلى فَرَسِهِ البَيْضاءِ، ونَجا بِها قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ أَحَدٌ مِنْ حُجْر وأَتْباعِهِ المخْلِصينَ.

فَصاح حُجْر صَيْحَةً هائِلَةً: «الوَيْلُ لَهُمْ مِنّي!»

ولَمْ يَصْبِرْ لِيَسْأَلَ طَويلًا عَنْ حَديثِ الغَزْوَةِ، فَقَدْ كانَ أَوَّلُ هَمِّهِ أَنْ يُبادِرَ إِلى العَدُوِّ لِيُخَلِّصَ مِنْهُ زَوْجَتَهُ وحَبيبَتَه الحَسْناءَ.

وطَلَعَتِ الشَّمْسُ عَلَى جَيْشِ حُجْرٍ وهُوَ يَحُثُّ مَطاياهُ عائِدًا نَحْوَ الغَرْبِ، يَطْلُبُ مَنازِلَهُ في نَجْدٍ، لَعَلَّهُ يُدْرِكُ عَدُوَّهُ قَبْلَ أَنْ يَنْجُوَ بِما غَنِمَهُ مِنْها. وكانَ حُجْر صامِتًا يَنْفُثُ أَنْفاسَهُ سُمًّا زُعافًا ويَهْوي عَلى فَرَسِه بِالسَّوْطِ وهِيَ تَنْهَبُ الأَرْضَ، ولا يَزالُ يَسْتَبْطِئُها (يَجِدُها بَطيئَةً) وَيعْنُفُ في القَسْوَةِ

عَلَيْها حتّى بَلَغَ هَضْبَةً بَعْدَ أَيّامٍ مَعْدودَةٍ.

وطالعَتْهُ رِياحُها العاطِرَةُ ورَأى رِمالَها الصَّفْراءَ النّاعِمَةَ لا أَثَرَ عَلَيْها يَنُمُّ على الغارَةِ الّتي شَنَّها عَلَيْه عَدُوُّهُ الحانِقُ. وراحَ يَجولُ في كُلِّ مَكانٍ، ولَكِنَّهُ لَمْ يَعْثُرْ لها عَلى أَثَرٍ.

وكانَ أَوَّلَ هَمِّهِ أَنْ يُرسِلَ رَجُلَيْنِ في آثار العَدُوِّ يتحَسَّسانِ أَخْبارَهُ، ويَريانِ كَيْفَ أَصْبَحَتْ هِنْدٌ مَعَهُ، وكيف صارَتْ إِلَيْهِ حالُها. وكان قَلْبُهُ كُلَّما تَصَوَّرَ ذَلِكَ العَدُوَّ القاسِيَ يَسْقيها الذُّلَّ والعذابَ في أَسْرِهِ، كادَ يَنْفَطِرُ إشْفاقًا عَلَيْها.

وقَضى أيّامًا في عَذابٍ لا يَذوقُ نَومًا، كانَ خلالَها لا يُفَكِّرُ في شيْءٍ سِوَى عَوْدَةِ رَسولَيْهِ بِأَخْبارِها، حَتّى عادَ إِلَيْهِ أَحَدُ رَسولَيْهِ ويُسمَّى سَدوسًا بَعْدَ أيّامٍ يَحْمِلُ إِلَيْهِ الأَنْباءَ، فأَسْرَعَ إِلَيْهِ حُجْر وسَأَلَهُ في لَهْفَةٍ عَظيمَةٍ عَنِ الأَخْبارِ.

وجَعَلَ سَدوس يُحَدِّثُهُ في ضَوْءِ القَمَرِ بيْنَ الكُثْبانِ العَفْراءِ (الّتي لَمْ تُوطَأْ)، في حين كانَ حُجْر يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ ويَكادُ بَريقُ الغَضَبِ في عَيْنَيْهِ يَلْمَعُ في ضَوْءِ القَمَرِ الوَضّاءِ. وأَخَذَ سَدوس يَصِفُ إِلَيْه كَيْفَ تَسَلَّلَ إِلى جَيْشِ العَدُوِّ في اللَّيْلِ، وكَيْفَ زَحَفَ عَلى الرِّمالِ حَتّى صارَ وراءَ خَيْمَةِ هِنْدٍ، وسَمِعَ حَديثَها مَعَ

العَدُوِّ الَّذي اخْتَطَفَها.

وكانَ كُلَّما أَفْضى في وَصْفِهِ تَلَوّى حُجْر كأنَّ النّارَ تَتَّقِدُ في حَشاهُ، يَقْبِضُ يَدَهُ تارَةً ويَبْسُطُها، وَيَنْزِعُ عباءَتَهُ مَرَّةً ثُمّ يَشُدُّها، حَتّى قالَ لَهُ سَدوس: «ثُمّ دَنا زيادٌ مِنْ هندٍ.»

وصاحَ حُجْر بِدَهْشةٍ: «وَيْحَكَ يا سَدوس! أَتقولُ إِنَّهُ دَنا مِنْها؟»

أَجابَ سَدوس في وَجَلٍ: «نَعَمْ دَنا مِنْها.»

وانْدَفَعَ حُجْر نَحْوَهُ وصاحَ وهُوَ يَزْفِرُ في غَيْظٍ شَديدٍ: «وَيْلَكَ! ماذا تَقولُ؟ دَنا مِنْها؟ يا لَهُ مِنْ نَذْلٍ دَنيءٍ!»

واسْتَمَرَّ سَدوس: «ثُم مالَ عَلَيْها وَقَبَّلَها.»

وهَبَّ حُجْر مِنْ مَجْلِسِه كأَنَّ أفعًى قَدْ لَسَعَتْهُ، وقَبَضَ بيُمْناهُ قَبْضَةً مِنْ عُشْبَةٍ بَرِّيَّةٍ اسمُها المُرار كانَتْ في جِوارِه، فَقَضَمَها بأَسْنانِهِ وجَعَلَ يَلوكُها، وقالَ وهُوَ يَهْدِرُ غَضَبًا: «وكَيْفَ يَجْرُؤُ على ذَلِكَ؟ كَيْفَ؟»

قالَ الرَّجُلُ في وَجَلٍ شَديدٍ: «إذا شِئْتَ أَنْ أُمْسِكَ عَنِ الكَلامِ أَمْسَكْتُ.»

وقضَمَ حُجْر وَرقَةً مِنْ أَوْراقِ الشَّجَرِ كانَتْ في يَدِهِ، وجَعَلَ يُمَزِّقُها بأَسْنانِهِ ويلوكُها، وهُوَ يَقولُ بِصَوْتٍ مُخْتَنِقٍ: «امْضِ في حَديثِك.»

قالَ سَدوس في شَيْءٍ مِنَ التَّرَدُّدِ: «وقالَ لَها زيادٌ: «ما ظَنُّكِ الآنَ بحُجْرٍ؟ أَتوَدّينَ لَوْ جاءَ مُسْرِعًا في أَثَري؟ أَتوَدّينَ العَوْدَةَ إِلَيْهِ؟»»

قالَ سَدوس ذَلِكَ، ثُمَّ تَوقَّفَ فَجْأَةً عَنِ الحديثِ، ونَظَرَ نَحْوَ الزَّوْجِ الثّائِرِ، فاسْتَحَثَّهُ حُجْر عَلى مُواصَلَةِ الحديثِ، وقالَ وهُوَ يَجْتَرُّ الكَلامَ اجْتِرارًا (يُعيدُهُ وَيُكَرِّرُه): «ما لَكَ تَقِفُ؟ اِمْضِ في حَديثِكَ، لا أُمَّ لَكَ! اِمْضِ لا أَبَ لَكَ! قُلْ بماذا أجابَتِ المرْأَةُ.»

قالَ سَدوس في صَوْتٍ خافِضٍ: «فقالَتْ هند: «لَمْ أَبْغَضْ شَيْئًا في الحياةِ مِثْلَ بُغْضي لَهُ».»

صاحَ حُجْر مُلْتاعًا: «بُغْضُها لِمَنْ؟»

أَجابَ سَدوس وَهُو مُطرِقٌ: «بُغْضُها لَكَ.»

وتَسمَّرَ حُجْر في مَكانِه مُدَّةً، ثُمَّ بَدأَ يُفيقُ مِنْ هَوْلِ الصَّدْمَةِ، ووَلّى أَمامَ سَدوس وهُوَ يُزَمْجِرُ بِصَوْتٍ أَجَشَّ مُخيفٍ: «الفاجِرَةُ! الخائِنَةُ!»

وسارَ يَدُقُّ الأَرْضَ بِرُمْحِهِ في عُنْفٍ، حَتّى بَلَغَ خَيْمَتَهُ، وجَعَلَ يَعْبَثُ في مَتاعِها، ويُقَلِّبُ ما في أَرْكانِها، لِيَجْمَعَ مِنْها سِلاحَهُ ودُروعَهُ. وهَدَأَ فَجْأَةً وتَمالَكَ جَأْشَهُ، وخَرَجَ حَتّى كانَ عِنْدَ بابِ الخَيْمَةِ، فَوَقَفَ شاخِصًا إِلى الفَضاءِ مُتَّكِئًا عَلى رُمْحِهِ.



وعَنَّ (ظَهَرَ) لَهُ شَيْءٌ فَجْأَةً، فنادى سَدوسًا، وسَأَلَهُ: «أَحَقًّا ما قَالَتْهُ هِنْد. رُبَّما لَمْ يَبْلُغْ أُذُنَيْكَ كُلُّ ما تَفَوَّهَتْ بِهِ.»

وقالَ سَدوس مُؤَكِّدًا: «لا يا سَيِّدي، بَلْ ذَكَرَتْكَ بِكَلِماتِها عَنْ قَصْدٍ لا يُخْطِئُهُ أَحَدٌ.»

فَتَنَفَّسَ حُجْر في غَيْظٍ كأَنَّما صَدْرُهُ يَنْفَجِرُ، ثُمَّ قالَ: «أَهِنْدٌ مِنْ بَيْنِ النِّساءِ، أَمْ هِنْد كَذَلِكَ يا سَدوس؟ أَتَبغَضُني هِنْدٌ وتُفْضي إلى عَدُوّي بِذَلِكَ وهيَ بَيْنَ ذِراعَيْهِ؟ أَيُّ شَيْءٍ في الحياةِ يَحْرِصُ عَلَيْهِ الرَّجُلُ بَعْدَ هَذا؟ أَهَذا مَبْلَغُ الوفاءِ عِنْدَ هِنْد!»

وسَكَتَ لَحْظَةً راحَ يَسْتَعيدُ صُوَرًا ماضِيَةً لَهُ مَعَ هِنْد، وأَخَذَ يُقارِنُها بالصّورَةِ الَّتي حَمَلَها إلَيْهِ صاحِبُهُ. أَهَذِهِ هِنْد الَّتي وَجَدَ صُنوفَ السَّعادَةِ في قُرْبِها؟ أَهَذِهِ هِيَ الحبيبَةُ الّتي وَدَّعَها عِنْدَ بابِ الخَيْمَةِ وهِيَ تَبْكي؟ أَيُّ الصّورَتَيْنِ تَتَمَثَّلُ فيها الحَقيقَةُ، وأَيُّهما يَتَدَسَّسُ إلَيْها الكَذِبُ المَسْمومُ؟

والْتَفَتَ إلى سَدوس قائلًا: «إِذَنْ فامْضِ في قِصَّتِكَ، وقُلْ لي سائِرَ الحَديثِ، ولا تَحْجُبْ عَنّي شَيْئًا مِنْ قَوْلِها. قُلْ كُلَّ ما سَمِعْتَ، فَرُبَّما كانَ في الأَمْرِ شَيْءٌ يَفْتَحُ مَغاليقَ سِرٍّ فيهِ!»

ومَضى سَدوس يَتَحَدَّثُ كَأَنَّما يَهْمِسُ لِنَفْسِهِ، وكُلَّما بَلَغَ مَوْضِعًا

يَظُنُّ فيهِ مَثارًا لِلألَمِ المُبَرِّحِ في قَلْبِ صاحِبِهِ تَرَيَّثَ وتَرَدَّدَ. ولَكِنْ حُجْر كانَ ساهِمًا يَلوكُ قِطْعَةً مِنَ المُرار ويَلْفِظُها، ولا يَنْطِقُ إلّا بِزَفَراتٍ مَكْتومَةٍ كَأَنَّها حَشْرَجَةُ المَطْعونِ. وأَكْمَلَ سَدوس: «وجَعَلَتْ تَصِفُكَ قائِلَةً: «إنَّهُ شَبيهُ الكَلْبِ، شَفَتاهُ ضَخْمَتانِ مُتَدَلِّيتانِ كأنَّهُ بَعيرٌ أَكَلَ مُرارًا.»»

ولَفَظَ حُجْر قِطْعَةً مِنَ المُرارِ كان يَلوكُها، وقالَ في حَنَقٍ شَديدٍ: «نَعمْ ما أَنا إلّا بَعيرٌ أَكَلَ المُرار. اِمْضِ.. اِمْضِ في قِصَّتِكَ، يا سَدوس.»

واسْتَأْنَفَ سَدوس ولا يَزالُ في خَوْفِهِ: «ثُمَّ قالَتْ لَه: «كانَ يَنامُ وبعْضُ حَواسِّهِ مُسْتَيْقِظَةٌ. ولقَدْ رَأَيْتُهُ ذاتَ لَيْلَةٍ نائمًا وأنا أَنْظُرُ إلَيْه، فَإذا أَفْعَى تُقْبِلُ نَحْوَهُ، فَلَمّا بَلَغَتْ رَأْسَهُ نَحّاها عَنْها، فَمالَتْ إلى يَدِهِ فَقَبَضَها، فمالَتْ إلى رِجْلِهِ فَأَبْعَدَها، فَذَهَبَتِ الأَفْعى إلى وعاءِ لَبَنٍ كانَ إلى جانِبِهِ فشَرِبَتْ مِنْهُ، فقُلْتُ لَعَلَّهُ يَسْتَيْقِظُ فيَشْرَبُهُ فَيموتُ.»»

صاحَ حُجْر كَأَنَّ الأَفْعى قَدْ عَضَّتْهُ، وقالَ: «أَمْسِكْ! أَمْسِكْ، يا سَدوس! هَذا دَليلٌ لا يُدْخِلُ الرَّيْبَ في صِدْقِكَ. نَعَمْ إنّي لأَذْكُرُ ذَلِكَ وأَعْرِفُهُ، لَقَدْ صَحَوْتُ مِنْ نَوْمي فَرَفَعْتُ وِعاءَ اللَّبَنِ لأَشْرَبَ مِنْهُ، فَوَجَدْتُ فيهِ ريحَ الأَفْعى، وسَأَلْتُها عَنْها فَأَنْكَرَتْ أَنَّ ثَمَّةَ أَفْعًى. لَقَدْ رَأَتْها الشَّقِيَّةُ تَنْفُثُ سُمَّها في اللبَنِ، ووَدَّتْ لَوْ أَنّي شَرِبْتُهُ.»

وانْدَفَعَ خارِجًا مِنَ الخَيْمَةِ في غَضَبٍ هائلٍ، وصاحَ في أَتْباعِهِ يَسْتَنْفِرُهُمْ لِلْقِتالِ. وأَلْقَى بِنَفْسِهِ في المعركَةِ، وأَخَذَ يُقاتِلُ بضَراوَةٍ وشَراسَةٍ. وانْتَهى القِتالُ إلى غايَتِهِ وهَزَمَ حُجْر جُيوشَ زيادٍ، وعادَ بأَغْلى غَنائِمِ عَدوِّهِ: امْرأتِهِ الخائِنَةِ وزيادٍ أَسيرَيْنِ!

* * *

دَخَلَ حُجْر عَلَى هِنْدٍ فَقامَتْ إِلَيْهِ تَسْتَقْبِلُهُ، وكَأَنَّها لَمْ تَرَ بَريقَ عَيْنَيْهِ ولا تَقَلُّصَ شَفَتَيْهِ، وكَأَنَّها لَمْ تَسْمَعْ فَحيحَ أَنْفاسِهِ المُلْتَهِبَةِ، ولا دَقّاتِ قَلْبِهِ الحانِقِ. ومَدَّتْ نَحْوَهُ يَدَيْها كَأَنَّها تُريدُ أَنْ تَرْتَمِيَ بَيْنَ ذِراعَيْهِ، فاقْتَرَبَ مِنْها جاهِمًا، فَلَمّا شَخَصَتْ بِبَصَرِها إِلَيْهِ، أَصابَها وُجومٌ شَديدٌ، ولَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَنْبِسَ بِحَرْفٍ. وتَرَدَّدَتْ ثُمَّ أَطْرَقَتْ ورَدَّتْ طَرْفَها (نَظَرَها) عَنْ وَجْهِهِ هارِبَةً مِنْ نَظَراتِهِ الثّائِرَةِ.

وصاحَ بِها حُجْر: «ما لي أَراكِ لا تُقْبِلينَ عَلَى زَوْجِكِ الحَبيبِ؟»

ورفَعَتْ عَيْنَيْها إِلَى وَجْهِهِ المُرْبَدِّ (المُتَغَيِّرِ اللَّوْنِ مِنَ الغَضَبِ) تُريدُ أَنْ تَقْرأَ ما عَلَيْهِ، فَهالَها ما قَرَأَتْهُ مِنْ نَظَراتِ الشَّكِّ والارْتِيابِ، فعادَتْ إلى إطْراقِها (صَمْتِها) واضْطَرَبَتْ، وقالَتْ في ضَراعَةٍ: «ما كُنْتُ إلّا أسيرةً لَدى العَدُوِّ!»

وانْدَفَعَ حُجْر وقَدْ مَلَكَهُ الغَضَبُ، فَمَدَّ يَدَهُ إلى كَتِفِها فَهَزَّها هِزَّةً

عَنيفَةً، وقالَ في صَيْحَةٍ مَكْتومَةٍ: «وهَلْ للأَسيرَةِ أَنْ تَفتَحَ ذِراعَيْها لمنْ يأْسِرُها وتُقَبِّلهُ؟ تكَلَّمي أَيَّتُها الخائِنَةُ.»



فوجِئَتْ بكَلِماتِهِ، وأَصابَتْها رَجْفَةٌ شَديدةٌ هزَّتْ جَسَدهَا كُلَّهُ.

وتَركَ حُجْر كَتِفَها وارْتَدَّ إلى الوَراءِ قَليلًا، وصَوَّبَ إِلَيْها نَظْرَةً احْتَوتْ كُلَّ ما يَجيشُ في صَدْرِه مِنْ حِقْدٍ، فازْدادَتْ رُعْبًا وانْكَمَشَتْ في ناحِيَةٍ فأَطْلَقَ ضِحْكَةً مُخيفَةً، وقالَ في سُخْرِيَةٍ ومَرارةٍ: «انْظُري، يا هند، إلى شَفَتَيَّ، أَلَيْستا كَشَفَتَيِ البَعيرِ إذا أَكَلَ المُرارَ؟»

فاسْتَجْمَعَتْ رِباطَةَ جَأْشِها وقالتْ: «ما حَديثُكَ هَذا الَّذي تَتَحدَّثُ بِه؟ أَهَكَذا تَسْتَقْبِلُني بَعْدَ نَصْرِكَ؟ لَقَدْ كانَ بوُدّي لَوْ قُتِلْتُ قَبْلَ أَنْ أَقَعَ في يَدَيْ هَذا اللَّئيمِ.»

وواصَلَ حُجْر ضِحْكَتَهُ المخيفَةَ، ثُمّ قالَ في سُخْرِيَةٍ مَمْزوجَةٍ بالحِقْدِ: «وما الأَفعى الّتي لَمْ تَرَيْها؟ لَقَدْ شَمَمْتُ ريحَها في وِعاءِ اللَّبَنِ، ولَكِنَّكِ أَنْكَرْتِ رُؤْيَتَها. هَلْ عَلِمَ بِهَذا الحديثِ سِواكِ؟ أكاذِبٌ مَنْ يَرْوي هَذِهِ القِصَّةَ عَنْكِ؟ أَلَمْ تُخْبِري بِها زيادًا؟ لقَدْ كانَ سَدوس وَراءَ الخَيْمَةِ يَسْمَعُكِ تُحَدِّثينَهُ، ويَراكِ وأَنْتِ تُداعبينَهُ.»

وكانَ غَضَبُهُ قَدْ وَصَلَ إلى مُنْتَهاهُ عِنْد ذلِكَ، فدَفَعَها في صَدْرِها دَفْعَةً تَرَنَّحَتْ لَها وخَرَّتْ باكِيَةً عِنْدَ قَدَمَيْهِ وقالَتْ بَيْنَ دُموعِها: «لَقَدْ صَدَقَ صاحِبُكَ سَدوس في كُلِّ ما أَخْبَرَكَ بِه إلّا واحِدَةً.»

سَأَلَها حُجْر وهُوَ يَتَمالَكُ نَفْسَهُ: «ما هيَ؟»

أَجابَتْهُ هِنْد وقَدْ لَحظَتْ رِقَّةً في نَبْرَتِهِ: «قَولُه إِنَّ زيادًا قَدْ مالَ عَليَّ وقَبَّلَني، لقَدْ مالَ عَليَّ حقًّا، لكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنالَ منّي شَيْئًا. لَقَدْ لايَنْتُهُ وداريْتُهُ، وَحَكَيْتُ لَهُ لأُرْضيَ غُرورَهُ، وأُعابِثَ كِبْرياءَهُ، وأُطاوِلَهُ في رَغْبَتِهِ، حَتّى يَظَلَّ آمِلًا فيما عِنْدي، فَيُبقي عَلَيَّ، ولا يَمَسَّني بِسوءٍ، حتّى تَأْتيَ بِقَوْمِكَ وجَيْشِكَ فَتُخَلِّصَني مِنَ الأَسْرِ، وتُنْقِذَني مِنَ الذُّلِّ، فَأَعودَ إِلَيْكَ صافِيَةً نَقِيَّةً مُخْلِصَةً.»

هَدَأَتْ نَفْسُ حُجْر، واسْتَراحَ خاطِرُهُ، وسَكَنَ فُؤادُهُ.

قَرَأَتْ هِنْدٌ ذَلِكَ في أَساريرِ وجْهِهِ الّتي أَخَذَتْ تَنبسِطُ بَعْدَ عُبوسٍ، وَنَبْرَةُ صَوْتِهِ الَّتي رَقَّتْ بَعْدَ خُشونَةٍ، وكَلِماتِهِ الَّتي خَرَجَتْ هَيِّنَةً هادِئَةً بَعْد أَنْ كانَتْ تَنْهالُ كالحِجارَةِ.

وبَعْدَ لَحْظَةِ صَمْتٍ، خالَتْها هِنْد دَهْرًا طَويلًا قالَ لَها: «سَأَنْظُرُ أَصَدَقْتِ أَمْ كُنْتِ مِنَ الكاذِبينَ؟»

وانْطَلَقَ إِلى الخَيْمَةِ الَّتي قَيَّدَ فيها أَسيرَهُ زيادًا، فاسْتَحْلَفَهُ بِكُلِّ عَزيزٍ لَدَيْهِ، ووَعَدَهُ أَنْ يَفُكَّ أَسْرَهُ إِنْ صَدَقَهُ القَوْلَ، وسأَلَهُ ما الَّذي نالَهُ مِنْ هِنْدٍ.

أجابَهُ زيادٌ: «إِنَّها مِثالُ الوَفاءِ والمروءةِ. لاطَفَتْني وَخَدَعَتْني، كانَتْ تُمَنّيني وتَعِدُني، ولَكِنَّها لَمْ تُنْجِزْ وعْدًا، ولَمْ تُحَقِّقْ أُمْنيةً، حتَّى جِئْتَ، يا حُجر!»

وعادَ حُجْر إلى خَيْمةِ هِنْدٍ وقَدْ رَضِيَتْ مِنْها نَفْسُهُ، وطابَ لَها قَلْبُهُ، وصَفا لَها فُؤادُهُ، وراحَ يَبُثُّها لَواعِجَ شَوْقِهِ (حَبَّهُ الشَّديدَ)، ويُذيعُ في حَيِّهِ نُبْلَها ووَفاءَها.

* * *

ذَكاءُ طِفْل

اِشْتَرَكَ أَرْبَعَةٌ مِنَ التُّجّارِ في تِجارَةٍ، فَوَضَعوا رَأْسمالِهِمُ الَّذي شاركَوا فيه، وقَدْرُهُ أَلْفُ دينار، في كيسٍ واحِدٍ، وذَهَبوا بِهِ لِيَشْتَروا بِضاعَةً. وأَثْناءَ سَيْرِهِمْ في الطَّريق وَجَدوا بُسْتانًا لا نَظيرَ لِحُسْنِهِ، فَقالَ أَحَدُهُمْ: «ما رَأْيُكُمْ في دُخولِ هَذا البُستانِ لِنَتَنَزَّهَ، ونَأْكُلَ مِنْ ثِمارِهِ، ونَرْوِيَ ظَمَأَنا مِنْ عُيونِهِ.»

وافَقَهُ الجَميعُ، ودَخَلوا البُسْتانَ، وتَرَكوا الكيسَ عِنْدَ حارِسَةِ ذَلِكَ



البُسْتان، وشَرَطوا عَلَيْها أَلّا تُعْطِيَ أَحَدًا الكيسَ إلّا بِحَضْرَتِهِمْ كُلِّهِمْ.

وراحوا يَتَنَزَّهونَ داخِلَ البُسْتانِ وَيُمتِّعون عُيونَهُمْ وأُنوفَهُمْ بِجَمالِ وَرائِحَةِ وُرودِهِ وَأَزْهارِهِ، وجَعَلوا يَقْطِفونَ مِنْ ثِمارِهِ وَيَأْكُلونَ حَتّى شَبِعوا، ثُمَّ أَقْبَلوا عَلَى عُيونِهِ الرّائِعَةِ وراحوا يَشْرَبونَ حتّى ارْتَوَوْا. ولمّا أَحَسّوا بِالشِّبَعِ، قالَ أَحَدُهُمْ: «أَنا مَعي طيبٌ، تَعالَوْا نَغْسِلْ رُؤوسَنا مِنْ هَذا الماءِ الجاري ونَتَطَيَّبْ.»

قالَ آخَرُ في حَيْرَةٍ: «ولَكِنْ سَنَحْتاجُ بَعْدَ ذَلِكَ إلى مُشْطٍ نُسَوِّي بِهِ شُعورنا.»

وقال آخَرُ: «نَسْأَلُ الحارِسَةَ فَقَدْ يَكونُ عِنْدَها مُشْطٌ.»

وسَعى أَحَدُهُمْ إلى الحارِسَةِ قائِلا: «ادْفَعي لي الكيسَ».

قالَتْ مُعْتَرِضَةً: «لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُعْطِيَهُ لَكَ حَتّى تَحْضُروا جَميعًا أَوْ يأْمُرَني رُفَقاؤُكَ أَنْ أُعْطِيَكَ إيّاهُ.»

وكانَ رُفَقاؤُهُ في مَكانٍ بِحَيْثُ تَراهُمُ الحارِسَةُ وتَسْمَعُ كَلامَهُمْ.

وصاحَ الرَّجُلُ في رُفَقائِهِ: «إنَّها تَأْبى أَنْ تُعْطِيَني شَيْئًا.»

قالوا لَها: «أَعْطيهِ ما طَلَبَ.»

ولَمّا سَمِعَتْ كَلامَهُمْ أَعْطَتْهُ الكيسَ، فَأَخَذَهُ الرَّجُلُ وخَرَجَ هارِبًا

مِنْهُمْ، فَلَمّا أَبْطَأَ عَلَيْهِمْ جاءوا إلى الحارِسَةِ وقالوا لَها: «ما لَكِ لَمْ تُعْطيهِ المُشْطَ؟»

قالتْ وهيَ لا تُصَدِّقُ ما سَمِعَتْ: «مُشْطٌ؟ أيُّ مُشْطٍ؟»

قالوا: «نَعَمْ مُشْطٌ! نُسَوِّي بِه شُعورَنا بَعْد أَنْ غَسَلْنا رُؤوسَنا.»

قالتْ وهيَ تُحَدِّقُ في وُجوهِهِمْ في ذُهولٍ: «ما طَلَبَ مِنّي إلّا الكيسَ، ولَمْ أُعْطِهِ إيّاهُ إلّا بإذْنِكُمْ، وخَرَجَ مِنْ هُنا إلى حالِ سَبيلِهِ.»

ولَمّا سَمِعوا كَلامَ الحارِسَةِ لَطَموا على وُجوهِهِمْ، وقَبَضوا عَلَيْها بأَيْديهِمْ وقالوا لَها في غَضَبٍ: «نَحْنُ ما أَذِنّا لَكِ إلّا بإعْطائِهِ المُشْطَ.»

وأَصيبَتِ الحارِسَةُ بذُهولٍ شديدٍ، وتَمَلَّكَها خَوْفٌ هائِلٌ، وقالَتْ وقَدْ شَعَرَتْ كَأَنَّ الأَرْضَ تَدورُ بِها: «واللهِ ما ذَكَرَ لي مُشْطًا!»

وهَجَموا جَميعًا عَلَيْها وهُمْ في غَضَبٍ هائِلٍ، وقاموا بالقَبْضِ عَلَيْها، ودَفَعوها إلى القاضي، فَلَمّا حَضَروا بَيْنَ يَدَيْه، قَصّوا عَلَيْهِ القِصَّةَ.

وجَعَلَ القاضي يُفَكِّرُ في الأَمْرِ مَلِيًّا، ثُمَّ أَصْدَرَ حُكْمًا بِإلْزامِ الحارِسَةِ بالكيسِ، وأَلْزَمَ بِها صاحِبَ البُسْتانِ وَعَشيرَتَهُ.

* * *

خَرَجَتِ الحارِسَةُ وهيَ في حَيْرَةٍ شَديدَةٍ، لا تَعْرِفُ ماذا تَفْعَلُ، ولا

أَيْنَ تَهتَدي. وبَيْنَما هي تَسيرُ في الطَّريقِ لَقِيها غُلامٌ لا يَتجاوَزُ الثّامِنَةَ مِنْ عُمْرِه، فَلَمّا أَبْصَرَ الحَيْرَةَ عَلَى وَجْهِها، سَأَلَها: «ماذا بِكِ، يا أُمّاهُ؟» ولَمْ تَرُدَّ عَلَيْهِ جَوابًا واسْتَحْقَرَتْهُ لِصِغَرِ سِنِّهِ، ولَكِنَّهُ أَخَذَ يُكَرِّرُ عَلَيْها السُّؤالَ مَرّاتٍ ومَرّاتٍ، فَغَشِيَتْها نَوْبَةٌ مِنَ البُكاءِ، وراحَتْ تَرْوي لَهُ ما حَدَثَ وهيَ تَنْشِجُ (تُرَدِّدُ البُكاءَ في صَدْرِها) مِنْ فَرْطِ البُكاءِ.

كانَتِ الحارِسَةُ تَرْوي الحِكايَةَ وكَأَنَّها تُحَدِّثُ بِها نَفْسَها. وما إِنْ فَرَغَتْ مِنَ القِصَّةِ، حَتَّى الْتَفَتَتْ إلى الغُلامِ، وقالَت وهِيَ تُغالِبُ دُموعَها الَّتي طَفَرَتْ (تَدَفَّقَتْ) عَلَى وَجْهِها فَغَطَّتْهُ: «والآنَ لا أَعْرِفُ ماذا أَفْعَلُ، فأَنا فَقيرَةٌ ولا أَمْلِكُ دينارًا واحِدًا، فكَيْفَ بالأَلْفِ دينارٍ الَّتي أَلْزَمَني القاضي بإِحْضارِها! وما ذَنْبُ صاحِبِ البُسْتانِ وعَشيرَتِهِ؟»

فَقالَ لَها الغُلامُ: «أَعْطِني دِرْهَمًا لأَشْتَرِيَ بِهِ حلاوةً، وأَنا أَقولُ لَكِ شَيْئًا يَكونُ لكِ فيهِ الخَلاصُ.»

أَلْقَتِ الحارِسَةُ عَلَيْهِ نَظْرَةً ساخِرَةً، وقالَتَ في اسْتِهانَةٍ: «وما يَكونُ لَدَيْكَ مِنَ القَوْلِ، يا بُنَيَّ، إذا كانَ كُلُّ مَنِ اسْتَشَرْتُهُ مِنَ الكِبارِ قَدْ حارَ في الأَمْرِ؟»

فقالَ الطِّفْلُ في إِصْرارٍ: «لَنْ أَقولَ ما فيهِ الخلاصُ لَكِ إِلّا لَوْ مَنَحْتِني الدِّرْهَمَ.»



وأَعْطَتْهُ الحارِسَةُ الدِّرْهَمَ قائلةً: «هَيّا، قُلْ، يا صَغيري، ما عِنْدَكَ مِنَ القَوْلِ.»

قال لَها الغُلامُ: «اِرْجِعي إلى القاضي وقولي لَهُ: «لَقَدْ وَجَدْتُ الكيسَ، يا سيِّدي، وَلكِنْ كانَ بَيْني وبَيْنَهُمْ شَرْطٌ أنّي لا أُعْطيهِمُ الكيسَ إلّا بِحَضْرَتِهِمْ هُمُ الأَرْبَعَةُ».»

وراحَتِ الحارِسَةُ تُفَكِّرُ في كَلامِ الغُلامِ، ثُمَّ رَجَعَتْ إلى القاضي وقالَتْ لَهُ ما قالَهُ الغُلام، فَلَمّا اسْتَمَعَ القاضي إلى كَلامِها، أَرْسَلَ رِجالَ الشُّرْطَةِ لإحْضارِهِمْ. وعِنْدَما مَثَلوا أَمامَهُ سَأَلَهُمْ: «أَكانَ بَيْنَكُم وبَيْنَها هَذا الشَّرْطُ؟»

أَجابوا: «نَعَمْ.»

قالَ لَهُمُ القاضي: «أَحْضِروا إليَّ رَفيقَكُمْ وتَعالَوْا جَميعًا لِتَأْخُذوا الكيسَ.»

وخَرَجَتِ الحارِسَةُ سالِمَةً دونَ أَنْ يَلْحَقَ بِها ضَرَرٌ، وانْصَرَفَتْ إلى حالِ سَبيلِها.

* * *

طَبيعَة العَرَب

لَمّا تُوفِّي أَحَدُ الخُلَفاءِ المسلِمينَ، احْتَفَلَتِ الرّومُ بِذَلِكَ، واجْتَمعَ مُلوكُها، فَقالوا: «الآنَ يَنْشَغِلُ المُسْلِمونَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، فَتُمَكِّنُنا الفُرْقَةُ والغَفْلَةُ مِنْهُمْ، ونَسْتَطيعُ الوثْبَةَ عَلَيْهِمْ.»

وعَقَدوا لِذَلِكَ الاجْتِماعاتِ، وتَرافَعوا فيهِ بِالمُناظَراتِ، وأَجْمَعوا عَلَى أَنَّها فُرْصَةٌ قَدْ لا يَجودُ الدَّهْرُ بِمِثْلِها.

وكانَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مِنْ ذَوي العَقْلِ والمَعْرِفَةِ غائِبًا عَنْهُمْ، فَقالوا: «مِنَ الحَزْمِ عَرْضُ الرَّأْيِ عَلَيْهِ.»

ولَمّا أَخْبَروهُ بِما أَجْمَعوا عَلَيْهِ، قالَ: «لا أَرَى ذَلِكَ صَوابًا.»

وَسَأَلوهُ عَنْ عِلَّةِ ذَلِكَ، فَقالَ: «في غَدٍ أُخْبِرُكُمْ.»

ولَمّا أَصْبَحوا أَتَوْا إِلَيْهِ، وقالوا: «لَقَدْ وَعَدْتَنا أَنْ تُخْبِرَنا في هَذا اليَوْمِ بالرَّأْيِ فيما عَوَّلْنا عَلَيْهِ.»

قالَ: «سَمْعًا وطاعَةً.»

وأَمَرَ بِإحْضارِ كَلْبَيْنِ عَظيمَيْنِ، كانَ قَدْ أعَدَّهُما، ثُمَّ حَرَّشَ (أَفْسَدَ) بَيْنَهُما، وحَرَّضَ كُلَّ واحِدٍ منْهُما على الآخَرِ، فتَواثَبا وتَهارَشا حَتّى سالَتْ دِماؤُهُما.

ولَمّا بَلَغا الغايَةَ فتَحَ بابَ بَيْتٍ عِنْدَهُ، وأَرْسَلَ عَلى الكَلْبَيْنِ ذِئْبًا كانَ قَدْ أَعَدَّهُ لِذَلِكَ، فَلَمّا أَبْصَراهُ تَرَكا ما كانا فيهِ، وتأَلَّفَتْ قُواهُما، وَوَثَبا عَلى الذِّئْبِ فَقَتَلاهُ.

وأَقْبَلَ الرَّجُلُ على أَهْلِ الجَمْعِ قائِلًا: «مَثَلُكُمْ مَعَ العَرَبِ مَثَلُ هَذا الذِّئْبِ مَعَ الكَلْبَيْنِ: لا يَزالُ الهَرْجُ والفِتْنَةُ بَيْنَهُمْ ما لَمْ يَظْهَرْ لَهُمْ عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ، فإذا ظَهَرَ تَرَكُوا العَداوَةَ بَيْنَهُمْ، واجْتَمَعوا عَلى العَدُوِّ.»

واسْتَحْسَنوا قَوْلَهُ، واسْتَصْوَبوا رَأْيَهُ، واتَّبَعوا مَشورَتَهُ.

* * *

الينابيع تتفجّر من التُّراث العربيّ الأصيل، ومِنَ السِّيَرِ الشَّعبيَّةِ الغَنيَّةِ، ومِنَ الحِكاياتِ الشَّعبيةِ العَربيَّةِ؛ لتُصوِّرَ نماذجَ مُضيئةً مِن تُراثِنا، وتعرِض قِيمًا مُشرقةً في حياتِنا: تَمزج بين الجِدِّ، والفُكاهةِ في لُغةٍ هادئةٍ راقيةٍ: لا تعلو فتعوق القارئ وتصدّه ولا تسفُّ فتهبط بذوقِه ومستواه، وإنما تمتّع وجدانَه وقلبه، وتُثري فِكرَه وعقلَه.

الينابيع

١- سيف الإحسان وقصص أخرى
٢- حبات العقد وقصص أخرى
٣- الباحث عن الحظ وقصص أخرى
٤- مشورة قصير وقصص أخرى
٥- الشعرة الذهبية وقصص أخرى
٦- عنترة بن شداد: مولد البطل
٧- عنترة بن شداد: عبلة والصبي المقاتل
٨- عنترة بن شداد: السيف والكلمات
٩- عنترة بن شداد: يوم عنترة
١٠- رحلة السندباد المجهولة
١١- مزحة صيف وقصص أخرى
١٢- الدهان السحري وقصص أخرى
١٣- كرسي السلطان
١٤- بدر البدور
١٥- حكاية الفتى العربي وقصص أخرى
١٦- قوت القلوب
١٧- الخاتم السحري
١٨- بائع السعادة وقصص أخرى
١٩- رجع بخفي حنين وقصص أخرى
٢٠- العطار والعقد وقصص أخرى
٢١- نسمة الربيع
٢٢- مرآة الخير وقصص أخرى
٢٣- سر الجدة ومعركة طبيب
٢٤- أميرة الحسن والجمال
٢٥- من ألاعيب هلال
٢٦- ذو الإصبع وبناته

ISBN 977-16-1221-2

9 789771 612216

مكتبة لبنان ناشرون
زقاق البلاط ص.ب: ٩٢٣٢-١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم